

اليهود

دراسة تاريخية

بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على أمل تحرير القدس

د. فضل بن عمّار العمّاري

مكتبة التوبة



دراسة تاريخية

د. فضل بن عمار العماري



ⓒ مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العماري، فضل عمار

اليهود: دراسة تاريخية ـ الرياض

١٨٢ص، ١٤×٢١ سم.

ردمك ٦ـ١٠ـ٧٠٤ـ٩٩٦٠

١ ـ اليهود ـ تاريخ أ ـ العنوان

ديوي ٢٩٦ ١٨/٢١٠٦

رقم الإيداع: ١٨/٢١٠٦

ردمك: ٦ـ١٠ـ٧٠٤ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة التوبة

الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

الإهـــداء

إلى الصديق الحبيب

والعالم الأجل

الأستاذ الدكتور

عبد اللطيف بن ناصر الحميدان

المقدمـة

إن فهم التاريخ أمر غاية في الصعوبة والمجازفة، فهناك الكتابة المألوفة في التاريخ، وهي ما نعرفه بـ «**دراسة التاريخ**»، وقد اختلط الأمر هذه الأيام، فأصبح دارس التاريخ يمثل التاريخ، أو هو المؤرخ، ولم يعد يتطلب من هؤلاء إلا أن يجمع المادة ويصنفها، فتأتي مرتبة متناسقة.

وهذا الفهم نفسه هو الفهم السائد بين دارسي الأدب، فدراسة الأدب حتى الآن هي دراسة تاريخ الأدب، ولأمر ما فصلت الدراسات العربية عن الدراسات التاريخية، في حين أن طريقة أصحابها واحدة.

أما روح التاريخ، وأسرار الحوادث والأشخاص، فهي خارج إطار تلك الدراسات على كثرتها، وإن ندر منها ما يفصح عن شيء يرغب في كشف ماهية الحقيقة وجوهرها.

لقد درس تاريخ اليهود في الجزيرة العربية، ودرس شعر اليهود في الحجاز، يثرب خاصة، وتراكمت الكتب والدراسات تفسر وتشرح، وتقدم أوصافاً وتعليقات، وبقي واقع اليهود مغموراً، ذلك أن الدارسين راحوا يجمعون البيانات التاريخية، فيما يخص الحوادث والأيام، أو الوصفية، فيما يتعلق بالشعر والشعراء، وعند التدقيق والنظر،

تتبدى لنا أشياء، تستوقفها القراءة المتأنية، بمنهج مخالف لما هو سائد مألوف.

وحسب هذا الكتاب أن يقدم للقراء حقائق بيّنة عن علاقة اليهود بالعرب، فهو لا يمر على الحوادث، على أنها سنون وعلامات، بل على أن وراءها بواعث وأحلاماً؛ فاليهود عاشوا في جزيرة العرب على أنهم طبقة تخطط، وتبني، وتستعد لمستقبل الزمان. واليهود كانوا يمارسون طقوسهم الدينية، وفق ما آلت إليه اليهودية في تلك العصور، واليهود أهل تجارة، وصناعة، واحتراف.

ولعل القارىء يتبين افتراق عملية الممارسة النقدية للشعر هنا، عما مر به من قراءات في شعر الأعشى، أو عدي بن زيد مثلاً، وسوف يرى بعقله وقلبه، كيف كانت تجارة اليهود بالخمر، وما يتعلق بها من علاقة المرأة بالرجل، وكل ذلك كان يجري في المحيط العربي، وينفذ من أجل الإنسان العربي، في الجاهلية، والعربي في ذلك الزمان، أهون من بعوضة على تاج كسرى.

ولم يكتف اليهود ببسط سيطرتهم على خيبر، وفدك، وتيماء، بل راحوا ينتشرون في أرض العرب، ولم يستوقفنا كثيراً، ذكر ابن يامن، في بلاد البحرين، هَجَر، حتى يظن أن ابن يامن، مشتق من اليمين، مع أنه واضح من اسمه أنه يهودي ـ ابن يامين. وماذا يفعل ابن يامين ـ أي اليهود ـ هناك، سوى الاستغلال والسيطرة.

نقاط كثيرة تعرضها الدراسة عن طريق التحليل والتدقيق، وهي نقاط تضيف شيئاً إلى الوثائق التاريخية والوصفية التي طالما عولنا عليها، وكررها منا لاحق عن سابق.

وقد كان الكتاب محدوداً في موضوعه، محصوراً في حدوده، حتى يكون الإطار واحداً، والنتائج مترابطة، فنصل أخيراً إلى أن اليهود لم يكونوا يوماً ما أوفياء للعرب، ولم ينقطعوا بتاتاً عن سياسة وتقاليد أملتها عليهم شرائعهم التي وضعها أحبارهم، وأصحاب الدهاء منهم، ولم يكن لهم مجال تجريب ونجاح، لا في روما، أو مع الرومان، ولا في المدائن، أو مع الفرس، وإنما في بلاد العرب في كافة أرجائها، حتى صحاراها، ومع العرب بدواً وحضراً.

نظرة عامة في أصل اليهود

وُجد اليهود في أماكن معينة من الجزيرة العربية، دار المؤرخون حول أشهرها، وهي: يثرب (المدينة)، خيبر، تيماء، فدك، اليمن. أما أصل اليهود، فأمر مختلف فيه، وتتجه أغلب الآراء إلى أنهم:

أولاً: من سلالة بني إسرائيل جاؤوا إلى هذه البلاد للأسباب التالية:

١ ـ تتبع خطوط التجارة ومراكزها، والاستيطان فيها.

٢ ـ هم جماعات إسرائيلية رحلت بدوافع سياسية، هروباً من الضغط والمضايقة؛ إما من الآشوريين، بعد سقوط السامرة في أيديهم، أو على يد «**نبوخذ نصر**»، وإما من الرومان.

٣ ـ هم من الذين بعثهم **موسى** (عليه السلام) لحرب أهل الحجاز بعد خروجه من مصر، أو من أولئك الذين انضموا إلى **داود** (عليه السلام) في ثورته ضد ولده «**أبشالوم**».

ثانياً: إنهم من أصل عربي، جاؤوا من اليمن، أو عرب تهوَّدوا.

ثالثاً: اختلطَت بهم جماعات عربية من قبائل مثل: «**بلي**»، **وبني الحارث بن كعب، وغسان، وجذام، والأوس،**

والخزرج. أما أشهر قبائل اليهود هناك، فهي: **بنو النضير، بنو قريظة، بنو قينقاع**[1].

وتوضع بعد ذلك التواريخ في هجراتهم من الشمال إلى الجنوب، عند بعضهم وفق التالي:

١ ـ مع **موسى**: ١٢١٤ ق .م (أو ١٤٤٧م، أو ١٥٧٥م).

٢ ـ مع **داود**: ١٠٠٠ ـ ٩٦٠ ق .م.

٣ ـ بعد سقوط السامرة: ٧٢٢ ق .م.

وحدث تهجير آخر عام: ٧٢٠ (أو ٧١٥) ق .م.

٤ ـ بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل على يد **نبوخذ نصر** عام: ٥٨٦ ق .م (أو ٥٨٧ ق .م).

٥ ـ على يد الرومان عام: ٧٠م، ثم بين عامي: ١٣٢م، ١٣٥م[2].

لقد ناقش مهران مناقشة مستفيضة كل هذه الأقوال، ومال إلى أنهم ليسوا عرباً في معظمهم، بل من بني إسرائيل، مستنداً إلى حجج من أهمها:

١ ـ الأخلاق والتقاليد

وحسب رأي إسرائيل **ولفنسون**، فالطريقة المثلى إنما هي النظر في الأخلاق والتقاليد، واتجاه الأعمال والأفكار، وهنا

---

(١) راجع حول هذا: مهران، تاريخ العرب، ج ٢، ص ص ٢٠٦ـ ٢٥١.

(٢) المرجع السابق.

سوف نجد أن يهود بلاد العرب يهود أكثر منهم عرباً[1].

٢ ـ إقامة الحصون والآطام

وهو يستند في ذلك إلى رأي **ولفنسون** أيضاً، الذي يقول:

«إن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب، إنما أُتي بها من فلسطين، حيث تكثر هناك الحصون المتبعة في الجبال»[2].

٣ ـ اختصاصهم في القرآن الكريم بمسمى «بنو إسرائيل»

وهو يستند في ذلك إلى عبد الفتاح شحاتة. فيقول:

«أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير «بنو إسرائيل»، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده، وما كان منهم من تعجيز وإخراج وكفر وتكذيب وغدر، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وذلك في صدد التنديد بموقفهم من النبي ﷺ وفي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة، حيث يوجه الخطاب إلى بني

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق.

وانظر، إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٥ـ ١٦.

إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة المخاطب القريب، فيقص ما كان من الأقدمين وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك، وربط ما بدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء، كأن الجميع يصدرون عن جبلة واحدة وأخلاق متوارثة، وإذن: فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يثرب بـ «بني إسرائيل» يسوغ الترجيح، بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز، بصفة عامة، هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت، وإن كان هناك عرب تهودوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة، وليسوا إلا أفراداً»[1].

وليست هذه الحجج مقنعة، فالآطام والحصون، غير مقصورة على اليهود، وما دامت فكرتها مستوحاة من فلسطين، فإن الاتصال الحضاري بين الحجاز والشام، كان قديماً جداً، غير مقتصر على مجيء اليهود؛ فالعماليق الذين سكنوا يثرب كانوا على اتصال حضاري، أي إن الأقوام القديمة البائدة، أشادت الحصون والآطام، قبل أن يقيمها اليهود، والأولى أن يكون اليهود استولوا على هذه الآطام والحصون التي أقامها السابقون عليهم. ثم لماذا تقتصر الآطام والحصون على بلاد الشام، وجنوب الجزيرة العربية شهد

---

(١) مهران، تاريخ العرب، ص ٢٢٣.

وانظر عبد الفتاح شحاتة، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، ج ٢، ص ٢٧٩ـ٢٨٠.

حضارات عريقة؟ يقول تعالى في عاد:

﴿إرم ذات العماد﴾ [الفجر: ٧].

ويقول في ثمود:

﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ [الفجر: ٩].

ففكرة بناء القصور والحصون فكرة قديمة عرفها الإنسان المتحضر في الجزيرة العربية، فذكرها الشعراء مثلاً:

قال لبيد:

كَعَقْرِ الهَاجِرِيِّ إِذَا ابتَنَاه   بِأَشْبَاهٍ حُذِيْنَ عَلَى مِثَالِ[1]

أما الآطام، فليست قاصرة على يثرب أو شمال الحجاز، وإنما كانت في وسطها، يقول أحدهم:

أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ آطَامِ جَوٍّ   وَمِنْ أَطْوَابِهَا ذَاتِ المَنَاحِي[2]

ومع أن الخطراوي يرى أن مكة والطائف أخذتا فكرة الآطام من يثرب[3]، فإن وجودها في الحيرة، كما قال[4]، يدل على أنها لم تكن محصورة في يثرب وحدها، وإنما كانت منتشرة في غيرها.

وبعد، فما الذي يجعلها قاصرة على مكان محدود،

---

(١) شرح ديوان لبيد، ص ٧٦، العقر: القصر. الهاجري: بنَّاء من هَجَر. أشباه: اللَّبِن والآجر، المثال: قالب اللَّبن.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، «الرمانتان».

(٣) شعر الحرب، ص ٥٠ـ ٥١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٠.

وإنما الأطم:

حصن مبني بحجارة.

أو هو: **القصر.**

أو هو: **البناء المرتفع**[١].

ولا جدال بعد ذلك في أن الحصون والقلاع، كانت أبنية قديمة عريقة في حضارة الجزيرة العربية، وسنجد **حسان** يقول في اجتياحهم يثرب:

فَأَنْبُوا بِعَادٍ وَأَشْيَاعِهَا ... ثَمُودَ وَبَعْضِ بَقَايَا إِرَمْ

بِيَثْرِبَ قَدْ شَيَّدُوا فِي النَّخِيلِ ... حُصُوناً وَدَجَّنَ فِيهَا النَّعَمْ

فهذه المنازل ليست من صنع اليهود أو تفكيرهم، وإنما هي من أعمال قدماء العرب: الثموديين والآراميين، وجاء اليهود، فاحتلوها منهم:

نَوَاضِحَ قَدْ عَلَّمَتْهَا الْيَهُودُ ... عُلَّ إِلَيْكَ وَقَوْلاً هَلُمْ[٢]

ويبقى بعد ذلك القول بخطابهم بـ «بنو إسرائيل» في القرآن الكريم، استنتاجاً من أنه:

«إذن، فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يثرب... هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ياقوت، ج ٤، ٣٨٥، ٤٦٠.

عربية تهودت»[1].

ينبغي أن نتوسع في فهمه، فالقرآن الكريم عندما خاطب اليهود، لم يكن يحصر الخطاب في «يهود يثرب»، وإنما كان يخاطب اليهود قاطبة، من تهود في اليمن والحجاز وغيرهما، ومن هو يهودي انتساباً؛ أي إن اليهود المقيمين في جزيرة العرب، إما يهود إسرائيليون، وإما عرب تهودوا.

ومن أضعف تلك الحجج الحجة التي تجعل التقاليد والعادات أساساً للتفرقة بين العرب واليهود، فما هي هذه التقاليد والعادات؟ إن علينا:

أولاً: أن نضع في أذهاننا تأثير الانتساب إلى الديانة اليهودية في أخلاق اليهود.

وثانياً: أن نتأكد أن تقاليد هؤلاء تختلف عن تقاليد العرب. ولعل أبرز ملمح يمكن الإشارة إليها هو العمل الزراعي والصناعي والتجاري، وهذه ليست فوارق اجتماعية فاصلة، فكثير من الحواضر العربية زاول أهلها هذه الأعمال. أما الفروسية، فتربية اجتماعية، وحالات فردية، ولم يكن الأنباط أهل حرب، وكانوا يعيشون بين ظهراني العرب. وأما العبادات، ففي العرب نصارى ووثنيون، ويهود شاركوا الوثنيين، فليس في المقدور، على هذا، اتخاذ أية حالة اجتماعية صفة بارزة على يهوديّ الجزيرة العربية.

---

(١) انظر قول مهران السابق.

ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بني النضير وبني قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية، تهودوا وسموا باسم المكان الذي نزولوا فيه.

ويبدو من هذا العرض السابق أن النظرية التي تقول:

إن اليهود في شمال الحجاز ينتمون إلى بني إسرائيل صلبية.

نظرية ملفقة، وغير واقعية. أما ما هو مرجح، فهو أن بعض هؤلاء اليهود عرب تهودوا. بل هناك من رأى **أنهم كلهم عرب؛ وأن يهود يثرب هم من القبائل العربية في الجزيرة العربية، وقد اعتنقوا اليهودية**[1].

ويجد هذا الرأي تأييداً من بعض الدارسين المعاصرين، فهذا أحمد سوسة يعرض تأييده لهذا الاتجاه، فيقول:

«إن البطون العربية المتهودة التي لم يكن لها عهود خاصة مع الرسول ﷺ والتي أجليت عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه لم يعرف أن أحداً من هؤلاء نزح إلى فلسطين ليكون بالقرب من هيكل سليمان مندفعين بالحماس الديني، لذلك فليس بالمستطاع تأييد بعض الكُتّاب الذين اعتبروا أصل يهود الجزيرة مرتبطاً بيهود فلسطين الذين أجلاهم الرومان، لأن ذلك يخالف سنة الطبيعة فالهجرة لا تتم من البيئة

---

(١) سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٥٣.

المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح، والحقيقة هي أن اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام وقد توجه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب لأنهم وجدوا أن القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام كانت مهيأة نفسياً لتقبل فكرة التوحيد. لذا كان نشاط التبشير في الجزيرة على أشده حتى تمكن المبشرون المسيحيون من تنصير بعض القبائل كما استطاع الأحبار اليهود من تهويد البعض الآخر»[1].

ثم يتساءل سوسة عدة تساؤلات حول الزعم القائل: إن يهود الحجاز من أصل إسرائيلي، فيقول:

«هل كان يهود الخزر من يهود فلسطين..؟

وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت بدين اليهودية قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبال أوراس، وقبائل أخرى هي نفوسة وقندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو بازار، التي يحدثنا عنها ابن خلدون من يهود فلسطين...؟ وهل كانت قبائل بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة التي انتشرت فيها الديانة اليهودية قبل الإسلام والتي يحدثنا عنها ابن قتيبة والقاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي من يهود فلسطين؟

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٥٤.

أما آربيري، فيرى أن التحول إلى اليهودية في هذه المجتمعات، تَمَّ عن طريق تحول أحد أفرادها، ثم اتّباع غيره له[1].

ولا شك في مصداقية هذا القول من الناحية النظرية، أما من حيث الواقع، فعلينا ألا ننساق مع كل افتراضاتنا؛ فليس لدينا الآن ما يفسر تفسيراً معتمداً وجود اليهودية في المغرب، أو بلاد الخزر؛ ولكن وجود اليهودية في بلاد العرب، أمر له اعتباراته الخاصة.

وقبل الخوض في أي نقاش، نحدد موقفنا من مصادرنا، فنحن نتخذ القرآن الكريم المصدر الأول والأخير لأية معلومات تاريخية ـ إن جاءت فيه ـ ونضع غيرها في مستوى ثانوي. فمهما وجدت من مكتشفات أثرية، ومهما قال خبراء الآثار وعلماء التاريخ بنتائجهم، فإنها عندنا الآخر، والأول هو القرآن. فهذه مصادر إنسانية، عرضة للنفس البشرية، أما القرآن، فمصدر إلٰهي، لا يأتيه الباطل من أية جهة.

وهؤلاء القوم ينتمون بشكل أو بآخر (أي إن كثيراً منهم ليسوا من أصل واحد) إلى بني إسرائيل.

أما عن يهود الحجاز، فإن التراث الشفوي يقول:

«وكان موسى بن عمران عليه السلام قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم، فبعث موسى عليه السلام إلى

(١) Religion in the Middle East, P.133

العماليق جيشاً من بني إسرائيل، وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً إذا ظهروا عليهم ولا يَسْتَبْقُوا منهم أحداً، فقدم الجيش الحجاز، فأظهرهم الله عز وجل على العماليق، فقتلوهم أجمعين»[1].

وبعد أن تورد الرواية خبراً يهيىء لبقائهم في الحجاز، تقول إنهم:

«حتى قدموا المدينة، فنزلوها، وكان ذلك الجيش، أول سكنى اليهود المدينة، فانتشروا في نواحي المدينة كلها إلى العالية، فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع، ولبثوا بالمدينة زماناً طويلاً»[2].

وهذا يعني أن يهود الحجاز قدموا من شمال الجزيرة العربية، لا من جنوبها، وأنهم ـ في اعتقادهم ـ ينتمون نسباً إلى بني إسرائيل.

وحين ننظر في تاريخ تَفَرُّق القبائل العربية، نجد:

أن إبراهيم عليه السلام وُجد في حدود (التاسع عشر ق .م) أي إن أحفاده من العرب المستعربة كانوا حتى منتصف القرن (الرابع عشر ق .م) غير قادرين على الانتشار السريع، واكتساح المناطق التي تقطنها العرب العاربة.

وقول مؤرخي العرب في وجودهم في شمال الحجاز

---

(١) الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه.

وانظر البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ٤٣ـ ٤٤.

يقترب من بعد خروج **موسى** من مصر تقريباً، ثم استيلاء اليهود بقيادة **يوشع بن نون** على فلسطين بعده، أي إن هذا الانتشار ذو علاقة بحملات **يوشع بن نون**، وإنْ رَبَطه العرب **بموسى**.

ويحدد الألوسي زمن انتشار أبناء **مُضَر في تهامة**، في زمن **بختنصر**[1].

لقد أوقع اليهود على السكان الأصليين في شمال الحجاز إبادة جماعية، وركزوا دعائمهم، حتى صاروا أسياداً في تيماء ووادي القرى، ولم يتمكنوا من الوصول عسكرياً إلى مراكز مثل: مكة، لتركز العرب المستعربة بها، ولم يبلغوا الطائف، وقد كانت ثقيف فيها.

إن المساحة التي استولى عليها اليهود ما زالت محصورة في تيماء ووادي القرى وفدك، وهي المنطقة المتاخمة لبلاد الشام، ففي الأغاني:

«وكان ملك الحجاز ينزل ما بين تيماء إلى فدك»[2].

على حين بقيت خيبر ـ المتاخمة للمدينة ـ خارج استيطان اليهود الإسرائيليين، ولم يتهود أهلها إلا بعد فترة متأخرة، كما سنرى عند الحديث عن التهود.

ويذهب صابر طعيمة إلى هذا الرأي، فيقول:

---

(١) بلوغ الأدب، ج ٣، ص ٢٦٤.

(٢) الأغاني، ج ٢٢٢، ص ٩٨.

«بعد موسى، قام بشؤون اليهود تابعه المخلص (يوشع بن نون) وهو من ذرية يوسف. وعاود اليهود نشوزهم وخروجهم عن الطاعة. وبعد يوشع جاء (كالب بن يوغنة)، فلاقى من اليهود الأمرين، ثم تتابع على بني إسرائيل قضاة ينظمون أمورهم. ومرت السنون، وتحولت معظم القبائل الإسرائيلية إلى الوثنية، وأهملوا تعاليم التوراة، وظهر عدة أنبياء حاولوا أن يذكروهم بالدين الحقيقي، دون جدوى.

وفي تلك الفترة، قام أول احتكاك بين بني إسرائيل وبين عرب الحجاز (العمالقة)، فقد نزحت أعداد كبيرة من الإسرائيليين وصحبهم زوجاتهم وأطفالهم، إلى أراضي الحجاز في الجزيرة العربية، ناشدين الحرية والأمان بعيداً عن الاضطهادات والمنافسة حول الحياة.. وفي الحجاز احتلوا أخصب الواحات، واحتكروا أهم الموارد الاقتصادية، وكانت هذه الهجرة هي أولى الهجرات اليهودية التي سنراها تنزح إلى شبه الجزيرة العربية فيما بعد»[١].

وربما أيد قوله تعالى:

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم... وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون،..﴾ [الأعراف: ١٣٧].

---

(١) التاريخ اليهودي العام، ص ٤٤.

وقوله:

﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل،،،﴾ [الشعراء: ٥٩].

ذلك الانتشار الأول، على أساس أن أرض الحجاز من الأراضي المباركة، وأن تلك الفرقة من بني إسرائيل ذهبت هنالك بعد الخروج من مصر.

أما يثرب، فبعد أن أخذ العرب المستعربة في الانتشار، زحفت الجماعات التي تنتسب إلى قضاعة إلى شمال الحجاز ونواحيه، وشاركوا اليهود الأرض، فممن نزل يثرب:

بنو أنيف	قباء
بنو غُصينة	يثرب
بنو عبيد	يثرب
بنو الأخثم (القيون)	معدن سليم[١]

إضافة إلى جماعات أخرى[٢].

ويدل هذا الانتشار على أن عدد اليهود القدماء في المدينة كان محدوداً، خاصة أنهم لم يستطيعوا إغلاقها على أنفسهم، كما فعلوا في تيماء مثلاً، مما سمح لغيرهم بمزاحمتهم، حتى كادوا يقضون عليهم، إن لم يذوبوا فيهم حقيقة. وقد ظل الأمر هكذا حتى القرن الثاني الميلادي عندما أفنى الرومان وجودهم في فلسطين، فتشتتوا، وكان منهم من اتجه إلى شمال الحجاز، يقول أبو الفرج:

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ص ٢٨ـ ٢٩.

(٢) الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٨.

«ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعاً بالشام، فوطؤوهم، وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، فخرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى من بالحجاز من بني إسرائيل، لما غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم، بعث ملك الروم في طلبهم، ليردهم، فأعجزوه، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز، فلما بلغ طلب الروم الثمد، انقطعت أعناقهم عطشاً، فماتوا وسمي الموضع ثمد الروم، فهو اسمه إلى اليوم، فلما قدم بنو النضير، وقريظة، وبهدل، المدينة، نزلوا الغابة، فوجدوها وبيئة، فكرهوها، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً سواها، فخرج حتى أتى العالية، وهي: بُطحان ومَهزور، واديان من حرّة على تلاع الأرض عذبة، بها مياه عذبة، تنبت حُر الشجر، فرجع إليهم، فقال: قد وجدت لكم بلداً طيباً، نزهاً إلى حرة يصب منها واديان على تلاع عذبة ومَدَرَةٍ طيبة في متأخر الحرّة، ومدافع الشَّرج، قال: فتحوّل القوم إليها من منزلهم تلك، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان، وكانت لهم إبل نواعم، فاتخذوها أموالاً، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور، فكانت لهم تلاعه، وما سقى من بعاث وسموات، فكان ممن يسكن المدينة، حين نزلها الأوس والخزرج من قبائل بني إسرائيل: بنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمر، وبنو زعورا، وبنو قينقاع، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو الفصص، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم

الشرف والثروة والعز على سائر اليهود، وكان بنو مرانة في موضع بني حارثة، ولهم كان الأطم الذي يقال له: الخال، وكان يقال لبني قريظة وبني النضير خاصة من اليهود:

الكاهنان، نسبوا بذلك إلى جدّهم الذي يقال له: الكاهن»[1].

واستمر اليهود في يثرب ردحاً من الزمان، حتى حدثت هجرات العرب الجماعية الأخيرة من اليمن إثر انهيار سد مأرب، فتدفقت جموع منهم إلى بلاد الحجاز، وكان ممن توجه إلى يثرب الأوس والخزرج.

يحدثنا حسان بن ثابت عن تحرك قومه، فيقول:

أُولئِكَ قَوْمِي فَإِنْ تَسْأَلِي ... كِرَامٌ إِذَا الضَّيْفُ يوماً أَلَمّ

ثم يقول:

وَكَانُوا مُلُوكاً بِأَرْضِيهِمُ ... يُنَادُونَ غَضباً بِأَمْرٍ غَشِمْ

مُلُوكاً عَلَى النَّاسِ لَمْ يُمْلَكُوا ... مِنَ الدَّهْرِ يَوْماً كَحِلِّ القَسَمْ

فَأَنْبَوْا بِعَادٍ وَأَشْيَاعِهَا ... ثَمُودَ وَبَعْضِ بَقَايَا إِرَمْ

بِيَثْرِبَ قَدْ شَيَّدُوا فِي النَّخِيلُ ... حُصُوناً وَدَجَّنَ فِيهَا النَّعَمْ

نَوَاضِحَ قَدْ عَلَّمَتْهَا اليَهُودُ ... عُلَّ إِلَيْكَ وَقَوْلاً هَلُمْ

وَفِيمَا اشْتَهُوا مِنْ عَصِيرِ القِطَافِ ... وَعَيْشٍ رَخِيٍّ عَلَى غَيْرِ هَمْ

---

(١) الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٩- ١٠٠.

ويمضي حسان في رواية تاريخ قومه، فيقول:

فَسَارُوا إِلَيْهِمْ بِأَثْقَالِهِمْ ... عَلَى كُلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قَطِمْ
جِيَادَ الخُيُولِ بِأَجْنَابِهِمْ ... وَقَدْ جَلَّلُوهَا ثُخَانَ الأَدَمْ
فَلَمَّا أَنَاخُوا بِجَنْبَيْ صِرَارٍ ... وَشَدُّوا السُّرُوجَ بِلَيِّ الحُزُمْ
فَمَا رَاعَهُمْ غَيْرُ مَعْجِ الخُيُو ... لِ وَالزَّحْفُ مِنْ خَلْفِهِمْ قَدْ دَهَمْ
فَطَارُوا شِلاَلاً وَقَدْ أُفْزِعُوا ... وَطِرْنَا إِلَيْهِمْ كَأُسْدِ الأَجَمْ
عَلَى كُلِّ سَلْهَبَةٍ فِي الصِّيَا ... نِ لاَ تَسْتَكِينُ لِطُولِ السَّأَمْ
وَكُلِّ كُمَيْتٍ مُطَارِ الفُؤَادِ ... أَمِينِ الفُصُوصِ كَمِثْلِ الزُّلَمْ
عَلَيْهَا فَوَارِسُ قَدْ عَاوَدُوا ... قِرَاعَ الكُمَاةِ وَضَرْبَ البُهَمْ
لُيُوثٌ إِذَا غَضِبُوا فِي الحُرُو ... بِ لاَ يَنْكُلُونَ وَلَكِنْ قُدُمْ
فَأُبْنَا بِسَادَتِهِمْ وَالنِّسَا ... ءِ قَسْراً وَأَمْوَالِهِمْ تُقْتَسَمْ
وَرِثْنَا مَسَاكِنَهُمْ بَعْدَهُمْ ... وَكُنَّا مُلُوكاً بِهَا لَمْ نَرِمْ(١)

---

(١) ديوان حسان، ج ١، ص ص ٥٧ـ ٥٨.

غشم: من الظلمة والغلبة. أنبوا: أخبروا. نواضح: جمع ناضحة، أي تدفع بالماء لغزارتها. علّ إليك: هجان: أبيض. قطم: فحل. المعج: السرعة في الذهاب والمجيء. شلالا: سراعا متتباعة. الأجم: جمع أجمة، أي غابة. سلهبة: طويلة. الصيان: ما يصان به، كميت: أحمر. مطار الفؤاد: ذكي. الفصوص: جمع فص، وهو ملتقي كل عظمتين. الزُلم: حمع الزّلم، وهو السهم. البُهَم: جمع بهمة، أي الجيش. لا ينكلون: لا ينهزمون. أبنا: عدنا. لم نرم: لم نغادر

ويختصر أبو الفرج القصة، فيقول:

«فلما أرسل الله العرم على أهل مأرب، وهم الأزد... لما توجهوا (الأوس والخزرج) إلى المدينة، ووردوها، نزلوا في صِرار، ثم تفرقوا...»[1].

وفي أثنائها يحكي قصة **مالك بن العجلان**.

ولكن أبيات حسان تدل حقيقة على أن الأوس والخزرج جوبهوا مباشرة بهجوم شرس ضار من اليهود وقاطني المدينة من العرب، وأن حرباً شعواء دامت بينهم في موقعة صِرار، تم النصر فيها للأوس والخزرج، الذين هزموا اليهود ومن معهم، وفرقوهم واحتلوا منازلهم، ولا يتعلق هذا التاريخ إلا بقريظة والنضير، كما أشرنا سابقاً.

وقد أثبت من بقي من أولئك العرب، هذا الوجود، فقال العباس بن مرداس السلمي، راداً على هجاء من هجاهم:

هَجَوْتَ صَرِيحَ الكَاهِنَيْنِ وَفِيكُمُ　　　لَهُمْ نِعَمٌ كَانَتْ مدى الدَّهْرِ تُرْتُبا[2]

وكما نلاحظ في هذا البيت، فإن المأثور الشفهي العربي ينسب يهود يثرب إلى الكاهنين، الذين يقولون: إنهم **ولد الكاهن بن هارون بن عمران، أخي موسى** عليه السلام، فاحتفاظ اليهود بهذا النسب، واعتراف العرب لهم به، يعني

---

(١) الأغاني، ج ٢٢، ص ١٠١. صِرار: موضع قرب المدينة.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠. الترتب: الأمر الثابت.

ترجيح نسبتهم إلى اليهود، وليسوا في جملتهم من العرب، ومما يدعم هذا قولهم:

«وكانت وظيفة الكهان عندهم وراثية، وقد حصرت في نسل هارون، وهم اللاويون»[1].

وإذا كان الجدل كثيراً ما يدور حول الحجاز، فإنه جدل قاصر، أخذ بظواهر التاريخ، ولم يَتَحَرَّ بقية جوانبه، ذلك أن اليهود، وجدوا أيضاً في منطقة البحرين[2]، كما وجدوا في الحيرة[3]، وفي مدين[4]، وفي قرية مُزُون بُعمان[5]، وفي حضرموت، بل في عدن[6].

إن العودة إلى انتشار العرب **أولاً**، وإقامة بعض قضاعة وبقايا الآراميين، ثم تأخر مجيء الأوس والخزرج، **ثانياً**، ينقلاننا إلى أن استيطان اليهود الذين حملوا هذه التسمية من عهد **موسى** تم في مرحلة مبكرة، فيما يتعلق بالحجاز عامة، تسبق الأحداث المتأخرة كالتدمير البابلي وفتك الرومان بهم.. الخ، وتأخذنا الأحداث إلى مرحلة الخروج من مصر (١٢٠٥ ق.م، أو ١٢١٤ ق.م، أو ١٤٤٧ ق.م، أو

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سوسة، العرب واليهود، ص ٢٦٣.

(٣) ابن كثير، الكامل، ج ٢، ص ٢١٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢٥.

(٥) البكري، معجم ما استعجم «مَزون».

(٦) جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ٥٣.

١٥٧٥ ق .م). فلقد جاء قوم منهم إلى هذه البلاد، بصورة ما، مهما كان الجدل حولها[١].

لقد أكد **حسان**، وأكد غيره من الشعراء الأوائل، هذا الاستنتاج فيما يخص يهود المدينة، كما رأينا، حتى أصبح الأمر إحدى المسلمات في تاريخ اليهود في شمال الحجاز، يقول جماعة البارقي، مثلما قال حسان تماماً:

وَبَنُو قَيْلَةَ الَّذِينَ حَوَوْا يَثْـ	**ـرِبَ بِالقُودِ وَالأُسُودِ العُتَاةِ**
زَحَفُوا لِلْيَهُودِ وَهْيَ أُلُوفُ	**مِنْ دُهَاةِ اليَهُودِ أَيِّ دُهَاةِ**
فَأَبَادُوا الطُّغَاةَ مِنْهَا وَلَمَّا	**يَفْشلُوا فِي لِقَاءِ تِلْكَ الطُّغَاةِ**
وَأَذَلُّوا اليَهُودَ فِيهَا وَأَخْلَوْا	**مِنْهُمُ الحَرَّتَيْنِ وَاللاَّبَاةِ**
أَصْبَحَ المَاءُ وَالْمَسِيلُ لِقَوْمٍ	**تَحْتَ آطَامِهَا مَعَ الثَّمَرَاتِ**
وَلَهُمْ مِنْ بَنِي اليَهُودِ عَبِيدٌ	**خَوَلٌ مِنْ نَوَاضِرٍ وَبَنَاتِ**
وَرُعَاةٌ لَهُمْ تَسْتَمِرُّ سُرُوحاً	**وَسُقَاةُ قَوَارِبٍ وَطُمَاةِ**
أَسَرُوهَا مِنَ اليَهُودِ لَدَى تَشْـ	**ـتِيتِها فِي القُرَى وَفِي الفَلَوَاتِ**[٢]

---

(١) انظر مثل هذا الجدل: مهران، تاريخ العرب القديم، ج ٢، ص ٢٠٦ ـ ٢١٢.

(٢) الأصمعي، تاريخ العرب الأولية، ص ص ٨٦ ـ ٨٧، وانظر الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٧٣.

القود: جمع قوداء، وهي الفرس الطويلة الظهر. اللاباة: اللاَّبة: الحَرَّة، وهما لابتان، أي حَرَّتان. القوارب: جمع قارب، وهو طالب الماء. الطماة: جمع طام، أي ملآن، الفلوات: الصحارى.

كما قال بعض آل أسعد بن ملكيكرب، مشيراً إلى أن تجمعات اليهود في المدينة كانت أكبر، إلا أن الأوس والخزرج طردوا منهم كثيراً خارجها:

وَفِي يَثْرِبٍ مِنَّا قَبَائِلَ إِنْ دُعُوا أَتَوا سُرُباً مِنْ دَارِعِينَ وَحُسَّر

هُمُ طَرَدُوا عَنْهَا اليَهُودَ فَأَصْبَحُوا عَلَى مَعْزِلٍ مِنْهَا بِسَاحَةِ خَيبَرِ (1)

وكما أشرنا سابقاً في تجمعات اليهود، فإن غالبيتهم كانوا في المناطق المحصنة: تيماء، فدك، خيبر، ولكنهم كانوا قلة في وادي القرى، وهم أضعف شأناً من أهل وادي القرى النازلين عليهم بعد ذلك. أما قول جواد علي:

«ووادي القرى، هو من المواضع التي غصت باليهود، فكان أكثر أهله منهم. وقد كان يهوده من المزارعين وقد حفروا به الآبار، وتحالفوا مع الأعراب، وعاشوا معهم متحالفين يعملون بالزرع» (2).

فليس بحجة، وليس له عليه دليل. ذلك أن وادي القرى كان لعُذْرة، ويبدو أن بني أسد نزحوا إليه؛ فكان فيه الأعراب، وكان فيه الحاضرة من العرب، وهو موطن استقرار وإنتاج، وجذب وتحصيل. أما اليهود، فهم كثرة، ولكنهم ليسوا أكثر أهله، ذلك أن أعمالهم الزراعية تظهرهم مقيمين متجمعين في المزارع، بينما مَن حولهم من الأعراب ومَن

---

(1) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٩.

(2) المفصل، ج ٦، ص ٥٢٩. وانظر، زاد المعاد، ج ٢، ص ١٤٦.

بينهم من الحاضرة، بدو مشتتون ومتفرقون، على أنهم هم الأكثرية، ثم إنهم يعيشون بينهم لا على أن هناك حلفاً يجمعهم، وإنما يعيشون مزارعين. وخداماً، وعبيداً، وأجراء لملاك الأرض من العرب غير اليهود.

واعتراضاً على رأي سوسة من أن يهود شمال الحجاز تهودوا بفعل التبشير، نورد رأي محمد عزة دروزة الذي يقول:

«إن الديانة اليهودية ليست تبشيرية مع أن ما ينطوي فيها من تعاليم ومبادىء يجعلها جديرة بأن تكون ديانة ورسالة عامة وخالدة، والمتبادر أن هذا قد أتى من عقدة بني إسرائيل النفسية التي جعلتهم أنانيين يعتبرون أنفسهم متميزين على البشر ويضطغنون الحقد لغيرهم ويجنحون إلى الانفراد في حياتهم»[1].

أي إن يهود شمال الجزيرة العربية، هم يهود غرباء وافدين، وقد رأينا أن جماعات عربية دخلت في الديانة اليهودية، وفي مثل هذا يقول دروزة:

«والأرجح أن هذا ليس نتيجة دعوة ولا تبشير وإنما هو تساهل مع غرباء كانوا يعيشون بينهم»[2].

---

(١) تاريخ الجنس العربي، ج ٤، ص ٢١٢.

(٢) المرجع نفسه.

كما يقول:

«وإذا كانت طوائف كبيرة من أمم أخرى اعتنقت الديانة اليهودية مما هو ثابت أيضاً، فالمتبادر أن ذلك كان بسبب ما صاروا إليه من حالة وهن وتشتت ولعله كان بقصد تقوية أنفسهم بغيرهم على أن هذا ظل في نطاق ضيق محدود أيضاً حينما يقاس عددهم بعدد أهل الديانات الإنسانية العامة التي تتسق أصولها وجوهرها مع ديانتهم»[1].

---

(١) المرجع نفسه.

العماليق

من أوائل ما نسمع عن علاقة العرب باليهود قول **عوف بن سعيد الجرهمي**:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العِمْلَقِيَّ بْنَ هُرْمُزٍ ... بِأَيْلَةَ أَمْسَى لَحْمُهُ قَدْ تَمَزَّعَا

تَدَاعَتْ إِلَيْهِ مِنْ يَهُودَ جَحَافِلٌ ... ثَلاثُونَ أَلْفاً حَاسِرِينَ وَدُرَّعَا

فَأَمْسَتْ عِدَادٌ لِلْعَمَالِيقِ بَعْدَهُ ... عَلَى الأَرْضِ مَشْيَاً مُصَعِدِينَ وفُرَّعَا

كَأَنْ لَم يَكُونُوا بَيْنَ أَجْبَالِ مَكَّةٍ ... وَلَمْ يَرِدُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ السَّمَيْدَعَا[1]

وعلى الرغم من أن القائل من الأمم البائدة، **«جرهم»**، فإن الخبر ـ على افتراض صحته ـ يلقي الضوء على تاريخ اليهود والعرب، ففي هذا إشارة إلى ما ترويه بعض كتب الأدب والتاريخ من أن اليهود اصطدموا عسكرياً بالعماليق الذين كانوا يسكنون بلاد الشام. فقد شن الملك **السَّمَيْدَع بن هرمز بن لمك**، حرباً على **يوشع بن نون**، الذي خلَف هارون، أخا موسى، حتى قتله **يوشع بن نون**.

ومن الواضح أن هذه الحرب ـ على افتراض صحتها ـ لم تتوجه من بلاد الحجاز، وإنما كانت الحروب دائرة بين

---

(١) البيتي العلوي، مواسم الأدب، ج ٢ ص ١٩٣.

الفريقين في أرض الشام. ونتبين منها مدى التهديد الذي كان يخلقه العماليق لليهود. فإذا كانت الحروب من بلاد الشام، كما هو واضح من الأبيات، فإن المقصود بالعماليق هنا، هم الكنعانيون. ولكن البيت الأخير فيها يقول:

كأن لم يكونوا بين أجبال مكّة

وهذا لا يعني أن القوة العسكرية اليهودية قد وصلت إلى مكّة، وإنما يعني أن مُلك العماليق في جزيرة العرب، قد ابتدأ في الانهيار، فقد حدثت الهزيمة في بلاد الشام، على من يطلق عليهم العرب مسمى: «**العماليق**»، يعنون بذلك الأقوام البائدة.

وتؤيد التوراة هذا الخبر، فهي:

«تحدثنا عن معارك دارت رحاها بين اليهود والعماليق، ولكن ليس في المدينة المنورة ـ كما يزعم بعض المؤرخين المسلمين القدامى، ومن تابعهم من المحدثين ـ وإنما في سيناء، حيث كان يقيم فريق من العماليق في منطقة منها تدعى «رفيديم»، وأن العماليق استمروا يضايقون الإسرائيلين حتى أيام شاؤل (١٠٢٠ـ ١٠٠٠ق.م)، أول ملوك إسرائيل، كما يروي سفر صموئيل الأول»[١].

أما الأخبار عن إرسال موسى جيشاً إلى بلاد الحجاز،

(١) مهران، تاريخ العرب القديم، ج ٢ ص ص ٢٠٨ـ ٢٠٩.

فهي محض اختلاق، ولا تستند إلى حقيقة[1].

ونعود مرة أخرى إلى قول صاحب مواسم الأدب: عقب الأبيات المذكورة سابقاً:

«سار ملك الشام السميدع بن هرمز بن لمك إلى يوشع بن نون، فكانت بينهم حروب، إلى أن قتله يوشع، واحتوى على جيمع ملكه، وشن الغارات بأرض الشام»[2].

فلقد تحققنا من أن التوراة تذكر الهزيمة التي لحقت بالعماليق، وهم من عاملة[3]. وعلى يد **يوشع** في سيناء. أما قوله:

«قتله يوشع، واحتوى على جميع ملكه، وشن الغارات بأرض الشام».

فهو مناقض لقولهم في رحيل قضاعة:

«سار... إلى أطراف الشام ومشارفها، ومَلِك العرب يومئذ ظَرِب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هرمز العمليق، فانضموا إليه، وصاروا معه، فأنزلهم مناظر الشام من البلقاء إلى حُوَّارين إلى الزيتون، فلم يزالوا مع ملوك

---

(١) انظر نقاش مهران، المرجع السابق، ص ص ٢٠٦ـ ٢١٣.
وانظر هذه الأخبار في الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢ ص ص ٩٧ـ ٩٨.

(٢) البيتي العلوي، ج ٢ ص ١٩٣.

(٣) البكري، معجم ما استعجم، ج ١ ص ٢٣.

العماليق. . .»[1].

ونتبين من هذا أن العرب سبقوا اليهود في الانتشار في هذه المنطقة، ولم يكن باستطاعة أي جيش اختراقها، وملوكها ذوو شأن وقوة، أي أن نتجاوز عن فكرة إرسال موسى عليه السلام جيشاً إليها.

والمؤرخون العرب أنفسهم يذكرون، كما رأينا رحيل **قضاعة**، أحد أبناء **معد بن عدنان**[2] ونزولها في وادي القرى وما والاها[3].

أما من يرى أنهم حي من اليمن، فيجعلون نزول القبائل: بَلِي، وبهراء، وكلب، والقين، بأمر الملك **المِلطاط بن عمرو**[4].

ويتحدد بهذا وجود اليهود في أزمنة لاحقة لهجرة القبائل العربية اليمانية، أو انتشار القبائل العدنانية. فإذا كان **إبراهيم الخليل**، أبو العرب واليهود، موجوداً في القرن السابع عشر قبل الميلا، أو القرن التاسع عشر، ثم ظهرت جماعة **موسى** بعده، بزهاء ستمئة سنة، أو سبعمئة سنة[5]،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، ج ١ ص ١٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥.

(٤) المصدر نفسه ص ص ٥١ـ ٥٢.

(٥) سوسة، العرب واليهود ص ص ٢٦، ٢٨ـ ٣٠.

فإن الفترة بين **إبراهيم** وأحفاده حتى **موسى**، هي الفترة التي انتشرت فيها القبائل العربية المذكورة.

أما مصطلح اليهود، الذي تذكره كتب الأدب والتاريخ، فلم يظهر إلا بَعْد عصر **إبراهيم الخليل** بحوالي ألف وخمسمئة عام[1].

ومن ثم فسكان المنطقة الحجازية كانوا عرباً يمانية، اختلطوا فيما بعد بالقبائل العدنانية.

وبهذا فإن قول البكري الذي اجتزأناه سابقاً، وهو:

«وكان أهل وادي القرى وما والاها اليهود يومئذ، . . . كانوا نزلوها قبلهم على آثار من آثار ثمود والقرون الماضية. . .»[2].

ينقضه الواقع التاريخي نفسه، الذي يثبت لنا أن اليهود هم الذين نزلوا على قبائل **سعد بن قضاعة**، الذين رفضوا اليهود بعد ذلك، كما في قول **عوف بن سعيد** السابق.

وقد ظل وادي القرى ممتنعاً على اليهود وعلى غيرهم، تسكنه **بنو عذرة**، الذين يقول فيهم النابغة:

هُمُ مَنَعُوا وَادِي القُرَى مِنْ عَدُوِّهِمْ ... بِجَمْعٍ مُبِيرٍ لِلْعَدُوِّ المُكَاثِرِ[3]

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠.

(٢) معجم ما استعجم، ج ١ ص ٤٣.

(٣) ديوان النابغة ص ٩٩.

تيماء

إن أقرب موضع لوادي القرى، هو تيماء، وقد جعل المؤرخون اليهود، هم أهل تيماء، في حين أن أهل تيماء هم: طيء. فقد نزح اليهود المرحَّلين من وادي القرى إلى تيماء، وأقاموا فيها، حتى كانت لهم الغَلَبة هذه المرة عليها، فاستحكموا فيها، وتحصنوا بها، وعدوها من ممتلكاتهم، ولم يسمحوا بدخولها إلا لمن كان على ملتهم[1].

يثرب وخيبر

ومن تيماء أخذوا يتسللون إلى المراكز التجارية في الحجاز، واستطاعوا إقامة مراكز لهم في يثرب وخيبر، وفدك.

ولكن قبل التفصيل في هذا الجانب هنالك نقطة ينبغي ذكرها، وهي:

غدر اليهود بالأوس والخزرج، ثم حلفهم معهم كما أظهر اليهود لأهل وادي القرى العداوة والبغضاء، بعد أن نجحوا في العيش بينهم ردحاً من الزمن، ثم خرجوا منها مرغمين مبعدين، جاؤوا إلى أهل يثرب من الأوس والخزرج وبقايا العماليق، وعاشوا بينهم.

ثم راح اليهود يحيكون الدسائس والمؤامرات للقضاء

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج ١ ص ٣٢٩.

على الأوس والخزرج، والاستئثار بيثرب، بعد أن تملكوا تيماء وفدك وخيبر؛ فاستنجد رئيسهم آنذاك، **مالك بن العجلان** بأبناء عمومته من غسان، فهب لهم ملكها **أبو جبيلة**، والتقى اليهود في موقعة **ذي حُرُضٍ**، حيث مزقهم شر ممزق، ففروا إلى معاقلهم في الآطام والحصون، وفي ذلك تقول **ساره القرظية**:

بِنَفْسِيَ أُمَّةٌ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً ... بِذِي حُرُضٍ تُعَفِّيهَا الرِّيَاحُ
كُهُولٌ مِنْ قُرَيْظَةَ أَتْلَفَتْهَا ... سُيُوفُ الخَزْرَجِيَّةِ وَالرِّمَاحُ
رُزِئْنَا وَالرَّزِيَّةُ ذَاتُ ثِقْلٍ ... يُمَرُّ لأَهْلِهَا المَاءُ القَرَاحُ
وَلَوْ أَرِبُوا لأَمْرِهُمُ لَجَالَتْ ... هُنَالِكَ دُونَهُمَ جَأْوَا رَدَاحُ[1]

ويبدوا أن الغساسنة وأقرباءهم: الأوس والخزرج، التقوا اليهود في معركة أخرى حاسمة، هي يوم **العُرَيض**، **كان النصر فيها للأولين، فسبوا نساءهم، وأعملوا السيف في رقابهم، وذلك فيما يبدو، بعد أن استعدوا لهم هذه المرة استعداداً قوياً، فجهز لهم الملك الغساني كتيبتين من خيرة كتائبه، هما: الملحاء والخشناء. يقول الصامت بن أصرم النوفلي:**

---

(١) الأغاني، الأصفهاني ج ٢٢ ص ١٠٣.

ذو حرض: وادٍ بالمدينة. تعفيها: تمحوها. رزئنا: أصبنا. يمر: يصبح مُرّاً. أربوا: اشتدوا. جأوا: مقصور جأواء: أي ضخمة كبيرة. رداح: عظيمة ثقيلة.

سَائِلْ قُرَيظَةَ مَنْ يُقَسِّمُ سَبْيَها يَوْمَ العُرَيْضِ وَمَنْ أَفَاءَ المَغْنَمَا؟

جاءَتْهُمُ المَلْحَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا وَكَتِيبَةٌ خَشْنَاءُ تَدْعُوا أَسْلَمَا

عَمِّي الَّذي طَلَبَ الهُمَامَ لِقَوْمِهِ حَتَّى أَحَلَّ عَلَى اليَهُودِ الصَّيْلَمَا[١]

وبعد استقرار الوضع السياسي في المدينة، ورجوح كفة الحزبين: الأوس والخزرج، على اليهود، أخذ اليهود في مهادنتهم ومسالمتهم، فعقد الأوس مع بني قريظة حلفاً دفاعياً، يذكره **حسان** في الإسلام، فيقول:

وَحِلْفُ قُرَيْظَةَ مِنَّا بُرَاءُ[٢]

وقد توثقت العلاقة بين الفريقين، حتى وصلت حد الأمانة والائتمان. يقول **عبد الله بن رواحة الخزرجي للأوس في بيت سيمر بنا:**

وكُنْتُمْ تَدَّعُونَ يَهُودَ مَالاً أَلانَ وَجَدْتُمُ فِيهَا يَهُودا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤.
وانظر حكاية الفِطيون ملك اليهود في يثرب، ياقوت، معجم البلدان، «حُرُض».
وانظر تفنيد هذه الحكاية: مهران، التاريخ العربي القديم ج ٢ ص ص ٢٣٠ـ ٢٤٥.
السبي: السبايا. العريض: وادٍ بالمدينة. أفاء: رجع. المغنمْ: الغنائم. أسلم: قبيلة يمانية. الصيلم: السيف القاطع.

(٢) ديوان حسان ج ١ ص ١٨.
حسان من الخزرج، وحلف قريظة كان مع الأوس؛ ولكن حسان يشير إلى البراءة من الحلف في الإسلام.

ولا بد أن تكون هذه العلاقة في حدود القرن الخامس الميلادي، على عهد تبع: **حسان بن تبان أسعد**، الذي اتحد أهل يثرب أجمع: عرباً ويهوداً ضده، وصدوه عن مدينتهم[1].

فتن اليهود بين الأوس والخزرج

رأينا أن اليهود تمكنوا من السيطرة الفعلية على تيماء وفدك وخيبر، واضطروا إلى التصالح مع الأوس والخزرج في يثرب. ويرجع السبب الرئيس في خسارة مواقفهم في وادي القرى ويثرب، إلى أن هاتين المنطقتين غير محصنتين بأسوار تحميهما، فمثلاً:

«لم يكن للمدينة سور أو حائط يحميها ويمنع الذين يريدون اقتحامها والدخول إليها... فعند الأخطار يتحصنون في آطامهم ويسدون منافذ الطرق بالصخور وغيرها من المعوقات، ثم يرمون أعداءهم من فوق سطوحها بالسهام والحجارة»[2].

وكانت الآطام التي بيد اليهود في يثرب قليلة، مقارنة بالآطام التي بيد الأوس والخزرج، وأشهر آطامهم:

بَرَج: ابتناه بنو القِمَّعة من بني النضير.

بَلْحان: كان في حَرَّة بني قريظة شرقي المدينة.

---

(١) المصدر نفسه ج ٢، ص ١٢.

وانظر، مهران، تاريخ العرب القديم ج ٢، ص ٢٢٦.

(٢) الخطرواي، شعر الحرب، ص ٥٠.

رانج: هو أحد آطام اليهود، وتسمى الناحية به، ويبدو أنه فوق جبل صغير يحمل اسمه، أو على سفحه.

الرَّيان: كان ليهود الجّوانية قرب أحد.

صرار: كان ليهود الجّوانية قرب أحد.

الشرعبي: هو من آطام اليهود.

فهذه ستة أطام لليهود، مقارنة بخمسة وعشرين أطما للأوس والخزرج، بل قد تزيد كثيراً[1]. وقد كان كل أطم، كما كان كل حصن قديم، أو قَصر، يشتمل على منبع ماء، ومصدر أكل، وكان النخل في منطقة الحجاز جزءاً من مواد الحصن، يدل على ذلك أن أحد شعرائهم يقول في بَلْحان (حصن اليهود):

مَـنْ سَـرَّهُ رُطَـبٌ وَمَـاءٌ بَـارِدٌ فَلْيَأْتِ أَهْلَ المَجْدِ مِنْ بَلْحَانِ[2]

حرب سمير

وبهذا لم يكن لليهود مفر من الاستسلام للمصالحة والمداهنة. ولكنه استسلام غير اليائس أو القانط، وإنما هو استسلام من يخطط للانتقام والانقضاض مرة أخرى بطريقته الخاصة، وحسب أطماعه وطموحاته، وقد بدأوا في تحييد الطرفين تجاههما، عندما عقدا أحلافاً منفردة معهما، فأمِنوا جانب اتحادهم، وتوثقوا من فرقتهما. يقول **الخطراوي** عن

---

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ص ٥٣ـ ٦٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٤.

حرب سمير:

«ظل الأوس والخزرج بعد انتصارهم على اليهود بمساعدة أبي جبيلة الغساني ورئاسة مالك بن العجلان السالمي الخزرجي: *على اتفاق ووئام تامين، وأصبحت لهم الرئاسة في يثرب وانخذل اليهود، وانصرف الحيان للبناء والتعمير، ففلحوا الأرض وعمروا البساتين واستنبتوا النخل، فكثرت عندهم الخيرات وعم بلادهم الرخاء، فلم يحل ذلك لليهود، ولم يرض ما في نفوسهم من حقد دفين فاستعملوا ما في جعبتهم من حيل لإيغار الصدور وإثارة البغضاء بين الحيين، ليصفو لهم الجو ويتحكموا في يثرب عن طريق التجارة والثراء بالمال، ما دام قد فاتهم الحكم والسلطان. فحرب سمير وهي الحرب الأولى بين الحيين مهد لها اليهود بخبثهم وتخطيطهم الخاص»*[1].

ومع أن **الخطراوي** وغيره يرجعون السبب المباشر لهذه الحرب، إلى مقتل **كعب الثعلبي**، حليف **مالك بن عجلان** وجاره، على يد **سمير بن زيد الأوسي، غيلة وغدراً**[2]، **فإن السبب الخفي الذي ذكره، هو عينه السبب الظاهر، وذلك أن الأوس أجابوا مالكاً**، عندما طلب منهم الدية:

«إنه قد كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير، ولا

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٢) المرجع نفسه ص ص ٩٨ـ ١٠٠.

يدرى أيهم قتله»[1].

وقد عبّر شعراء هذا الحادث عن شعورهم بالظلم الضيم، فقال **درهم بن زيد**، أخو سمير، مخاطباً **مالكاً**:

يَامَالِ لاَ تَبْغِيَنْ ظُلاَمَتَنَا يَا مَالِ إِنَّا لَمَعْشَرٌ أُنُفُ[2]

وقال **قيس بن الخطيم الأوسي** في الخزرج:

إِنَّ بَنِي عَمِّنَا طَغَوْا وَبَغَوْا وَلَجَّ مِنْهُمْ فِي قَوْمِهِمْ سَرَفُ[3]

وقال **حسان بن ثابت** من الخزرج، راداً على **قيس**:

إِنَّ سُمَيْراً عَبْدٌ طَغَى سَفَهاً سَاعَدَهُ أَعْبُدٌ لَهَا نَطَفُ[4]

فكل هذه الأقوال تتفق على رأي واحد هو: أن ظلماً وقع في القضية، وأن يداً خفية هي التي دبرته، وهذا واضح في رد **الخزرج**، وهو أكثر وضوحاً في قول **حسان** الذي ينص على:

أن جماعة غير عربية، هي التي نفّذت الاغتيال: «**أَعْبُدٌ لَهَا نَطَفُ**»، وهي إشارة إلى اليهود، الذين كانوا سقاة خمر، وكانت من علامات ساقي الخمر أن يضع القروط في أذنيه. **فسمير** ليس بريئاً كل البراءة من روح الثأر والانتقام، ولكن

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٢.

(٣) المرجع نفسه ص ١١١.

(٤) المرجع نفسه ص ١١٢.

النطف: القرط.

المُحَرِّض، بل المنفذ غِيلة وسط ضوضاء السوق وزحامه، هم: اليهود.

حرب كعب بن عمرو

علينا أن نلاحظ جيداً أن وسيلة إشعال الحرب الأولى كانت **الاغتيال**، ولو كان قتلاً، لَشَهَر العربي سيفه في وجه أخيه، أَنَفَة واعتزازاً من الحيلة والاحتيال، وهما بعض الممارسات المشهورة في تاريخ اليهود كله، فلقد كان أهل يثرب:

«رغم عداوتهم لا يقتلون رجلاً في داره ولا في نخله»[1].

ولم تهدأ أحقاد اليهود وعداواتهم، فما إن وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين، حتى عادوا، يشعلونها مرة أخرى، وبالطريقة نفسها، ويُزعم:

*«كَمَن جماعة من بني جحجبى من الأوس لكعب بن عمرو **المازني الخزرجي**، وترصدوه، وفي غفلة منه طلعوا عليه وفاجأوه بالضرب... حتى قتلوه»*[2].

وكما اغتال اليهود **كعباً الثعلبي**، فأوقدوا ناراً لم تنطفىء لسنين عديدة، اغتالوا هذه المرة **كعب بن عمرو**، واتهموا فيه تلك الجماعة من الأوس، واشتعلت الحرب من جديد، بعد أن ضاعت الحقيقة في ظل الاتهامات المتبادلة،

---

(١) الخطراوي، شعر الحرب ص ١٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٩.

ومشاعر النقمة والغضب.

يوم السَّرَارَة

وتستمر مخططات اليهود في الغدر والخيانة، فيغتالون رجلاً من بني الحارث من الخزرج في بئر أرِّيس (غرب قباء)، وتتوجه التهمة إلى بني عمرو من الأوس، ثم يعمدون إلى اغتيال المتهم، ولا تبقى فرصة للجماعتين، كي يتفاكرا، ويتناظرا في القضية؛ فيندفعان في حروب ضروس، ويقتِّل بعضهما بعضاً[1].

وليس في شعر الطرفين اتهام لأحدهما بالاغتيال، الأمر الذي يدل على أن الاغتيال كان مُدَبَّراً من طرف ثالث، كما بينا.

يوم الربيع

إن التأمل الدقيق، والتركيز العميق في الأحداث الجارية بن الخصمين: الأوس والخزرج في يثرب، يؤديان إلى الكشف عَمَّن كان وراء مسلسل الاغتيالات التي كانت تدبر من وراء ظهورهما، فيتورطان فيها، مدفوعَين بشهوة الانتقام، والرغبة في إلحاق أقصى الأذى والضرر بمن تقطعت معه الوشائج، وأصبح العدو اللدود، والخصم الأبدي العنيد.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٦.

يرجع الخطرواي وغيره سبب الحرب إلى أن الرجل الخزرجي قَتَل الأوسي في بئر أريس، ثم اغتالت الأوس القاتل.

فحتى الآن لم نشاهد على مسرح الأحداث شخوصاً بارزة، وإنما أسماء عُلِّقت عليها التهم، وأُلبست لباس القتل وسفك الدماء. وإذ يستمر هذا المسلسل المقيت، نجد أن يوم الربيع، يأخذ الصورة نفسها، قالوا:

*«كان **ربيع الظفري** يمر في مال لرجل من بني النجار إلى مال له، فمنعه **النجاري**، فتشابكا، وقتله **ربيع**، فعزم قومهما على القتال»*[1].

إننا نعرف كل رجال الأيام في الجاهلية، بل حتى نساءها (البسوس، مثلاً)، فلماذا لا نجد هنا إلا صفات فقط: رجل، **النجاري**، **الخزرجي**...؟ إذ لا بد من غياب أحد الأطراف! إن هذا يعني أن الأصابع الخفية التي كانت تقوم **بالاغتيال**: هي أصابع اليهود أنفسهم. بل إن هذا القاتل المزعوم، يقولون عنه:

«قيل إنه رجل يدعى ربيع الظفري»[2].

وعلى غير ما يظن من أن القاتل كان ربيعاً هذا، فقد كان ربيع هو المقتول، وهو الذي ثأرت له الخزرج، يقول **صخر بن سليمان البياضي**:

بِأَنَّا قَتَلْنَا بِالرَّبِيعِ سُرَاتَكُمْ وَأَفْلَتَ مَجْرُوحاً بِهِ كُلُّ مُفْلِتِ[3].

---

(١) الخطراوي، شعر الحرب ص ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٤.

سراتكم: أشرافكم.

الحــروب

حرب فارع

وتأكيداً لوجهة النظر السابقة التي ترى أن يهود يثرب كانوا وراء كل حروب الأخوين: الأوس والخزرج، نجد أسباب يوم فارع كسابقاتها:

«أن رجلاً بلوياً كان جاراً لمعاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأوسي. . . أتاه ابن أخ له يزوره، فعنَّ لبعض بني النجار إهانته، ولم يكتف بذلك بل تجرأ عليه وقتله»[1].

وتتكشف لنا خيوط المؤامرة، عندما قال عمرو بن الإطنابة، أحد زعماء الخزرج وأشرافها، بل ممن تملَّك على الحيين وساد فيهما، وحمل لقب: ملك الحجاز[2]، قصيدة هدد فيها وتوعد، فانبرى له الربيع بن أبي الحقيق اليهودي، يرد عليه، وهو من أحلاف الأوس، فقال:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغُ الأَكْفَاءَ عَنِّي ... فَلاَ ظُلْمٌ لَدَيَّ وَلاَ افْتِرَاءُ

فَلَسْتُ بِغَائِظِ الأَكْفَاءِ ظُلْماً ... وَعِنْدِي لِلْمُلِمَّاتِ اجْتِزَاءُ

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ مَنْ يَدْنُو لِخَسْفٍ ... لَهُ فِي الأَرْضِ سَيْرٌ واسْتِوَاءُ

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ١٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

وَمَا بَعْضُ الإقَامَةِ فِي دِيَارٍ يُهَانُ بِهَا الفَتَى إلاَّ عَنَاءُ
وَبَعْضُ القَوْلِ لَيْسَ لَهُ عِلاَجٌ كَمَخْضِ المَاءِ لَيْسَ لَهُ إنَاءُ
وَبَعْضُ خَلاَئِقِ الأَقْوَامِ دَاءٌ كَدَاءِ الشُّحِّ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ
وَبَعْضُ الدَّاءِ مُلْتَمِسٌ شِفَاهُ وَدَاءُ النَّوْكِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءُ
يُحِبُّ المَرْءَ أَنْ يَلْقَى نَعِيماً وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ مَا يَشَاءُ
وَمَنْ يَكُ عَاقِلاً لَمْ يَلْقَ بُؤْساً يُنِخْ يَوْماً بُسَاحَتِهِ القَضَاءُ
تَعَاوَرُهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى تُثَلِّمَهُ كَمَا ثُلِمَ الإنَاءُ
وَكُلُّ شَدَائِدٍ نَزَلَتْ بِحَيٍّ سَيَأْتِي بَعْدَ شِدَّتِهَا رَخَاءُ
فَقُلْ لِلْمُتَّقِي غَرَضَ المَنَايَا تَوَقَّ فَلَيْسَ يَنْفَعُكَ اتِّقَاءُ
فَمَا يُعطَى الحَرِيصُ غِنًى بِحِرْصٍ وَقَدْ يَنْمِي لَدَى الجُودِ الثَّرَاءُ
وَلَيْسَ بِنَافِعٍ ذَا البُخْلِ مَالٌ وَلاَ مُزْرٍ بِصَاحِبِهِ الحِبَاءُ
غَنِيُّ النَّفْسِ مَا اسْتَغْنَى بِشَيْءٍ وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمَرَتْ شَقَاءُ
يَوَدُّ المَرْءُ مَا تَفِدُ اللَّيَالِي وَكَانَ فَنَاؤُهُنَّ لَه فَنَاءُ[1]

فابن أبي الحقيق يحمل على عمرو بن الإطنابة حملة شعواء، يغذّي فيه أجيج الثورة والغضب، فيقول:

إنكم أيها الجمعان متكافئون: **«أكفاء»**، فليس أحدكم بأفضل من الآخر. ولكن الظلم أمر، لا يقر به أحد: **«فلست**

---

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ص ١٤٢ـ ١٤٣.

مخض: حرَّك، ينخ: ينزل. تعاوره: تأتيه من كل ناحية. غرض: هدف. الحباء: العطاء.

بغائظ الأكفاء ظلماً». وإنما أنا حكم عدل: «**وعندي للملمات اجتزاء**»، إن الذي يرضى بالضيم. لا قيمة له: «**فلم أر مثل من يدنو لخسف..**»، والإذلال غير مقبول من أحد: «**وما بعض الإقامة في ديار...**». وما يصدر من أعدائكم أيها الأوس، مثل قول ابن الإطنابة، لا يُحتمل أبداً: «**وبعض القول ليس له علاج....**»، والتعالي والغطرسة منهما: «**وبعض خلائق الأقوام داء..**»، والتمادي في الحماقة لا بد من صَدّه: «**وبعض الداء ملتمس شفاه...**». إن الحر لا يستسلم للظلم والتعدي عليه، مهما كانت العواقب: «**يحب المرء أن يلقى...**»، فلماذا تخافون من الموت، والنهاية المحتومة هي الموت: «**ومن يك عاقلاً...**»، «**تعاوره بنات الدهر..**»، إن الانتصار للحق، والعزيمة على رد الباطل، هما اللذان سيجلبان الخير والرفاهية: «**وكل شدائد نزلت بحي....**». أقدموا أيها الأوس على أعدائكم، دمّروهم، فلن تنفع الحياة، ولن يجدي المال، وأنتم في ذلة وهوان: «**فقل للمتقي غرض المنايا...**»، «**وليس بنافع ذا البخل...**»...

فهل هناك من خطبة أشد إثارة وحماسة من هذه، تدفع بالضعيف إلى أن يستبسل، وبالقوي إلى أن يرمي بنفسه في المهالك...

وقد قال الخطراوي عن هذه القصيدة:

«**مجموعة من الحكم...** **أكاد ألمس بينها**

خيطاً عاطفياً ونسقاً فنياً يربطها ببعضها»[1]

إنها سياسة اليهود وطرائقهم في التعبير، قد تبدو للخطراوي وغيره حِكماً، ولكنها في حقيقتها الموجعات التي تحز المفصل، أما عاطفتها، فهي إلهاب المشاعر وتجديد الثارات.

ولقد راح ناصر الدين الأسد يؤكد بأدلته أن القصيدة لقيس بن الخطيم، وليست لابن أبي الحقيق[2]، ولعل الأسد اندفع وراء حرصه على نسبة الشعر إلى ابن الخطيم، إذ لا علاقة بين شعر ابن الخطيم، ذلك الشاعر الماهر المتفنن في شعره، وهذا الشعر العاطفي المسترسل وراء فكرته، كما لاحظ الخطراوي.

ولنختصر كل هذه الأخبار، بعد أن توثقنا من أن اليهود كانوا هم مدبري كل تلك الاغتيالات التي جعلت الحروب بين الحيين، لا تنطفىء أبداً، وبعد أن رأينا تدخلهم المباشر في إشعال فتنة يوم الربيع.

أما هنا، فهم لم يكتفوا بالتواري والاختفاء، وتأليب الأقوام على بعضها، بل ساهموا علانية في إيقاد نار الفتنة بينهم. ونجد أن الخبر، كالأخبار الماضية، يأخذ طريقة الحكاية، فيقول:

---

(١) شعر الحرب، ص ١٤٤.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم، ص ص ١٥١ـ ١٥٨.

«إن حاطب بن قيس، أحد سادة الأوس وأشرافهم المعدودين، حمى جاره الذبياني، ووقف دونه من دونه. . . فغدا يوماً إلى سوق بني قينقاع، فرآه الشاعر يزيد بن فُسْحُم، وهو من بني الحارث بن الخزرج، وكان فيما يبدو رجلاً عابثاً طائشاً، أو من الحاقدين على الأوس، فقال لرجل من اليهود: لك ردائي إن كسعت هذا الذبياني، فأخذ منه الرداء، وكسع الذبياني كسعة سمعها من بالسوق، فنادى الذبياني: يا لحاطب! كسع ضيفك وضح! فلم يلبث أن سمع حاطب بالخبر، فأقبل مسرعاً إليه، وسأله: من كسعك، فأشار إلى اليهودي، فاستل حاطب سيفه، وضرب به اليهودي ضربة فلق بها هامته. . .».

وتنتهي الحكاية بثورة يزيد بن فُسحُم، طلباً لثأر صاحبه اليهودي، ويلتقي الجمعان[1].

وتخطيط المؤامرة واضح هذه المرة، فالمكان: سوق بني قينقاع، والمقتول جار سيد من الأوس، والقاتل يهودي، بتحريض من شاعر خزرجي. ونحن هنا أما حبكة القصة المعهودة دائماً، ومغزاها أن اليهود يتدخلون في كل مرة يجدون فيها أن الفريقين هدأا، وعادا إلى رشدهما.

ولم يتوقف هذا التدخل عند هذا الحد، بل إن اليهود بفرعيهم الكبيرين: قريظة والنضير (الكاهنين)، تظاهروا بالوقوف إلى جانب الأوس، وأعلنوا الحرب على الخزرج،

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ١٤٦، ١٤٨.

حتى تتاح لهم الفرصة لتصفيتهم جميعاً، بعد انحلال قواهم، يقول قيس بن الخطيم:

أَتَتْ عُصَبُ م الكَاهِنَينِ وَمَالِكٍ ... وَثَعْلَبَةَ الأَثْرِينَ رَهْطِ ابْنِ غَالَبِ[1]

ويقول:

وَتُذْرِكُ فِي الخَزَارِجِ كُلَّ وِتْرٍ ... بِذَمِّ الكَاهِنَيْنِ وَذَمِّ عَمْرِو[2]

وهكذا يقول عبد الله بن رواحة من الخزرج، في انتصارهم:

أَبَاحَ حُصُوناً ثُمَّ صَعَّدَ يَبْتَغِي ... مِظَنَّةَ حَيٍّ فِي قُرَيْظَةَ هَارِبِ[3]

وعلى الرغم مما يقال: إن الخزرج اتخذوا رهائن من اليهود، لمنع تحالفهم مع الأوس، وفي ذلك يقول أحد الخزارج:

تَخِذْنَا مِنَ الأُولَى اليَهُودِ عِصَابَةً ... لِغَدْرِهُمُ كَانُوا لَدَيْنَا وَدَائِعَا

فَذَلُّوا لِرَهْنٍ عِنْدَنَا فِي حِبَالِنَا ... مُصَانَعَةً يَخْشَوْنَ مِنَّا القَوَارِعَا[4]

فإن الحقيقة أن الخزرج أدركوا أن اليهود كانوا السبب الرئيس في حروبهم، فحاولوا أن يَحُولوا بينهم وبين حِيَلهم

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم، ص ٨٢.
ثعلبة: هم بنو ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس. الأثرين: جمع أثر، وهو الرجل الذي يستأثر على أصحابه بأخلاق حسنة.

(٢) ذم: الذمة: العهد.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢. ديوان ابن رواحة، باجودة، ص ٨٦.

(٤) الخطراوي، شعر الحرب، ص ١٦٧.

وتظاهرهم بالنصرة لأحد الفريقين، بأن أخذوا ذلك الرهن منهم. وقد آلم ذلك اليهود (قريظة والنضير)، فحرّضوا الأوس على الخزرج، مما دفع بالخزرج إلى قتل الرهائن، وهنا تجددت الحروب مرة تالية.

إن قول الرجل الخزرجي هو الحقيقة بعينها:

تخذنا من الأولى اليهود عصابة لغدرهم

فالغدر: هو الصفة التي عرفها الخزرج فيهم، فاحتاطوا لها، وانكشف أمر اليهود.

ولكنهم كانوا دوماً ينجحون في إشاعة الفوضى بين الجميع، حتى جاء الإسلام، فأنقذهم منهم.

يقول الخطراوي في محاولة استنجاد الأوس بقريش، وعدم نصرتهم لهم:

«كادوا يسلمون بالأمر الواقع، ويلقون السلاح ويعطون السيادة للخزرج، ولكن اليهود لم يحل لهم انتهاء الصراع على هذه الصورة، فعملوا خلال الخمس عشرة سنة من الهدنة على إشعال نار الحرب بين الحيين مرة أخرى وعرضت قريظة والنضير الحلف على الأوس، لكي تقوي عزمهم على محاربة الخزرج...»[1].

ويقول في هزيمة الخزرج في يوم بعاث، وكف الأوس عن ملاحقتهم:

---

(١) شعر الحرب، ص ١٦٦.

«ولكن قريظة والنضير انطلقوا بدافع حقدهم اليهودي في الخزرج سلباً ونهباً»[1].

وكانت النتيجة هي ما خطط له اليهود، أي تصفية أحد الفريقين، والقضاء عليه، ثم الاستعداد للكرة على الفريق الآخر، واستئصالهم جميعاً، يقول الخطراوي في يوم بعاث أيضاً:

«واستعاد اليهود بعد هذا اليوم مكانتهم بيثرب، ورأى المنتصر والمهزوم من الحيين سوء ما صنعوا»[2].

ولا بد أن اليهود كانوا هذه المرة قد احتاطوا للقضاء على الأوس، ولا شك أنهم كانوا يفكرون في طردهم من يثرب، ثم تحصينها تحصيناً قوياً، يمنع غيرهم من الدخول فيها، على غرار تيماء وخيبر وفدك، ثم مَدّ سلطانهم إلى غيرها، لا سيما مكة[3]، لتأسيس قوة ذات ثقل في المنطقة، ولكن الله شاء أن يطفىء نارهم، ويكونوا هم الخارجين.

ولنا بعد ملاحظة على خاتمة هذه الأحداث وهي:

أن الأوس والخزرج اتفقوا فيما بينهم ـ كما يظهر ـ على تتويج **عبد الله بن أبي سلول الخزرجي**، ملكاً عليهم

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) انظر محاولتهم الاستيلاء على مكة، ابن منبه، التيجان، ص ١٧٨.

جميعاً، حقناً للدماء وكفّاً للشر.

وعندما نتوقف قليلاً، لنفكر في حقيقة هذا التتويج وذلك الاتفاق، نجد أن الحرب بين القوتين وضعت أوزارها قبل مقدمه ﷺ، بخمس سنوات.

«بل إن بعض أهل يثرب تسلل الإيمان إلى قلوبهم قبل يوم بعاث»[1].

فالتتويج والاتفاق تمّا، ومحمد ﷺ يدعو في مكة، ويتناقل الناس خبر رسالته. وهذا أمر يحسب له اليهود أشد الحساب، لأنه ثبت لهم الآن أن هذا النبي الجديد ليس منهم؛ وإنما هو من العرب، وهو في مكة، المركز الاقتصادي الذي لو تم له النجاح فيه، فسيهدد استراتيجيتهم الاقتصادية والسياسية المستقبلة؛ ولذا، فلا بد من إعادة تقويم الأوضاع في ظل هذه الظروف الطارئة، وقد وجدوا أن دعم الاتفاق سيوفر عليهم مؤونة المواجهة العسكرية، لو تمت بين مكة ويثرب، ثم إن مباركة هذا الاتفاق، وتأييد الملك الجديد، سيضمن لهم مكاسب، وتُحفظ لهم إياد، وسيكونون هم الفائزين بعد نهاية الصراع.

لقد عرفوا النفسية العربية التي تتوق نحو الملك والسلطان، والتباهي بالألقاب والأحلام، وحُب الاستحواذ، والخضوع للعصبيات، والتنافر، والتباغض، والتحاسد؛ وها

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ١٧٠.

هو الشخص الملائم، في الوقت المناسب: إنه ابن سلول، الذي برهنت شخصيته في الإسلام عن عوامل ضعف وانتهازية، فهو رأس المنافقين، والمثبِّطين.

وقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الوحدة خيراً على يثرب، وشراً على اليهود.

إذن، فقد كانت محاولة اليهود توسيع نفوذهم في منطقة الحجاز، وتحصين نفوسهم في مدنها الرئيسة والمنيعة، انتظاراً لنبيهم الموعود، لبناء دويلة يهودية تكون نواتها الحجاز، ولقد مات مشروعهم الأول في إقامة المملكة الأولى في اليمن، وها هم يخططون لها في يثرب.

قضية الفطيون

اغتصاب نساء الآخرين

يقول مهران:

«تزعم المصادر العربية ـ دون غيرها من المصادر، حتى اليهودية ـ أن واحداً دعوه «الفيطون» أو «الفطيون أو الفطيوان» كان ملكاً على يهود في يثرب، وأنه كان جباراً غشوماً، فاجراً فاسقاً، حتى أن المرأة من الأوس والخزرج ـ وكذا من اليهود في بعض الروايات ـ كانت لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه أولاً، فيكون هو الذي يفتضها[1]».

(١) تاريخ العرب القديم ج ٢، ص ٢٣٠.

وقد ناقش مهران هذه الرواية مناقشة مستفيضة، وانتهى إلى أن:

«القصة مختلفة تماماً»[1].

ولكنه في المقابل يقول:

«إن الاعتماد على كتب اليهود والدينية ـ سواء أكانت توراة أو تلمودا ـ إنما تؤكد قصة الفيطون ولا تنفيها»[2].

وقد جاء بأدلة من التوراة منها:

«أن راؤبين بكر إسماعيل، قد زنى ببهلة، زوج أبيه يعقوب وأم أخويه دان ونفتالي».

«أن يهودا ـ رابع أبناء يعقوب ـ قد زنى بزوجة ابنه «ثامارا»».

أن «أمنون» بن داود عليه السلام، قد أحب أخته ثامارا» و. . . يأبى إلا أن ينالها اغتصاباً».

كما ذكر قصة «أستير» اليهودية محظية الملك الفارسي وعشيقته، وقصة داود و «بتشبع» امرأة أوريا الحبشي[3].

وإزاء هذا الوضع، فإن قوة الرفض تهتز، وتترجح كفة القبول، لأسباب منها:

١ـ أن هذه ظاهرة عرفها المجتمع الوثني قبل الإسلام في قصة عملوق ملك طسم مع عفيرة جديس، التي كان

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٧.

(٣) المرجع نفسه ص ص ٢٣٤ـ ٢٣٦.

الملك يفتض أبكارها قبل زواجهن، وهكذا تقول عفيرة:

لاَ أَحَـدَاً أَذَلُّ مِـنْ جَـديـسِ أهـكَـذَا يُـفْـعَـلُ بِـالـعَـرُوسِ

وقد ذكر مهران القصة[1].

٢ـ أن المجتمعات البشرية عرفت هذا النوع من الممارسات، وأن:

«أمثال هذه القصة حدثت في أوروبا في العصور الوسطى، ومن ثم فقد تكون عادة شائعة في تلك العصور القديمة عند بعض ملوك الشرق ورؤسائه»[2].

وهاتان حجتان تثبتان، تاريخياً واجتماعياً، أن مثل هذه الممارسات جرت في المجتمعات البشرية. أما مفاهيم العرض، والعار، والعروبة...إلخ، فهذه مفاهيم يمكن الجدل حولها في إطار الوثنية، فأين القتل وسفك الدماء؟ وأين انتشار الموبقات من خمر وميسر؟ بل أين سبي النساء الحرائر، وجرجرتهن من مكان إلى آخر:

لَـمْ يَـبْـقَ غَـيْـرُ طَـرِيـد

أَوْ حُرَّةٍ كَمَهَاةِ الرَّمْلِ قَدْ كُبِلَتْ فَوْقَ المَعَاصِمِ مِنْهَا وَالعَرَاقِيبِ[3]

وأين زواج الجاهلية بأنواعه الوثنية التي جاء الإسلام **فحرّمها**، ومنها امتلاك الابن زوجات أبيه... إلخ؟.

---

(١) مهران، تاريخ العرب القديم ص ٢٣٢ـ ٢٤٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٧.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٢.

أما الفيطون، وهل هو حقيقة أم خيال؟ ثم إنكار وجوده:

«فليس هناك ملك يدعى الفيطون، وحتى لو وجد الشخص بذاته، فلا يعدو أن يكون رئيساً نبيلاً، وفي أحسن الظروف زعيم يهود في يثرب»[1].

فإن هذا التردد في الجزم، يثبت الواقعة، ولا يرفضها، فسواء أكان ملكاً، أم رئيس قبيلة، أم زعيم يهود، فإنه كان يقوم بتلك الأفعال.

وعلينا، لكي نقبل الواقعة، أن نعود إلى المراحل التي ضعف فيها الأوس والخزرج، وتفرقت كلمتهم من ناحية؛ وتأثير قوة هذا الزعيم روحياً أولاً، ثم عسكرياً، من ناحية أخرى. ذلك أن هذه الجماعة الوثنية من الأوس والخزرج، ربما وَجدت في الفيطون باعثاً دينياً، شجعهم على تقبل هذه الممارسة منه، ورضوا بها، لاعتقادهم بقيمتها الروحية؛ لأن الفيطون كان ذا مركز اجتماعي في قومه، وكان ذا مركز ديني أيضاً، وقومه أنفسهم كانوا يقبلون بها، لبواعث دينية.

إن هذه الممارسة تثبت لنا شيئاً مهماً في حياة يهود العرب الدينية، وهو امتزاج المعتقدات الدينية: الوثنية واليهودية، في تفكير اليهود.

---

(١) مهران، تاريخ العرب القديم ص ٢٣٨.

أما عن الفطيون، فيقول جواد علي:

«وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول إلى يثرب. فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة. وقد ذكر ابن دريد أن بعضاً من (بني الفطيون) الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب، قد شهد بدراً، واستشهد بعضهم يوم اليمامة»[1].

أما عن الاسم نفسه، فقد يكون من «الفطنة»، وهذا ما يقوي الرأي بأنه كان ذا مركز ديني كهني، وربما سحري.

ولكي نقبل هذه الممارسة على أنها حقيقة واقعة، علينا أن ننظر في ممارسة شبيهة بها، وفي مكان آخر، وبالصورة نفسها؛ يقول **ياقوت الحموي** عن الخزر:

«ملكهم يهوديٌّ، ويقال: إنّ له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل، والخزر مسلمون ونَصارى، وفيهم عبدة الأوثان، وأَقل الفِرَق هناك اليهود على أن الملك منهم، وأَكثرهم المسلمون والنصارى إلاّ أَنَّ الملك وخاصته يهود، والغالب على أَخلاقهم أَخلاق أهل الأوثان، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وأَحكام مصرهم على رسوم مخالفة للملسمين واليهود والنصارى».

---

(١) المفصل في تاريخ العرب، ج ٦ ص ٥٢١.

وهكذا ورد عند جواد علي «الفطيون».

أما عن تصرفات الملك مع النساء، فيقول:

«ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل أمرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً، وله من الجواري السراري لفراشه ستون، ما منهن إلا فائقة الجمال، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج، وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطأ بعضهن، بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة».

ويتبين نفوذ هذا الملك في من هم في طاعته من قوله:

«الخزر وملكهم كلهم يهود، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته، ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة»[1].

فهذا الوضع الذي كان مستمراً قبل القرن الثالث الهجري وبعده، يمكن أن نحكم عليه الأحكام السابقة نفسها، إما بالإنكار والاستنكار، وإما بالقبول، على أساس

---

(١) معجم البلدان «خزر».

أن هؤلاء الخزر اليهود، كانوا يهوداً وثنيين، وهم في أوج قوتهم، وتسلطهم، ونفوذهم، كما اليهود في يثرب.

والواقع أن العرب اعترفوا بتلك الممارسة، وما احتفاظ الأدب بذكراها إلا تصديق لها، نجد هذا في قول تبع:

النَّازِلِينَ حَرِيمَ خَزْرَجَ عَنْوَةً فَلَهُمْ لَدَيَّ سَلاَسِلٌ وَقُيودُ[1]

كما نجده في قول ابن عم **روح بن زنباع**، في روح لما تزوج **حميدة بنت النعمان بن بشير**، بدمشق، وقد قدم على عبد الملك بن مروان:

رَضِي الأَشْيَاخُ بالفِطْيُونِ فَحْلاً وَتَرْغَب لِلْحَمَاقَةِ عَنْ جُذام

يَهودِيٌّ لَهُ بُضعُ العَذَارَى فقُبْحاً لِلْكُهولِ ولِلْغُلاَمِ

تُزَفُّ إِلَيْهِ قَبْلَ الزَّوجِ خَودٌ كَأَنْ شَمْساً تَدَلَّتْ مِنْ غَمَام

فَأَبْقى ذِلِكُمْ عَاراً وخِزْياً بَقَاءَ الوَحْيِ فِي صُمِّ التِّلاَمِ[2].

كما نجد هذا في هجاء **ابن قنبر لمسلم بن الوليد**، راداً على هجائه قريش، وفخره بالأنصار، يقول ابن **قنبر** في العصر العباسي من سكان المدينة:

فَعَزُّوا وَقَدْ كَانُوا وَفِطْيَوْنُ فِيهُمُ مِنَ الذُّلِّ في بَابٍ مِنَ العِزِّ مُبْهِم

---

(١) ابن شرية، أخبار عبيد بن شرية ص ٤٤٨.

(٢) الأغاني، ج ٩، ص ٢٢٢.

يَسُومُهُمُ الفِطْيَونُ مَا لاَ يُسَامُهُ كَرِيمٌ وَمَنْ يُنكِرِ الظُّلْمَ يُظْلَمِ[1]

ويقول في قصيدة أخرى:

وَبَنِي الأَوْسِ والخَزَارِجِ أَهْلِ الذُّ لِّ فِي سَالِفِ الزَّمانِ التَّلِيدِ

إِذْ رَضُوا بافْتِضَاضِ فِطْيَوْنَ مِنْهُمْ كُلَّ بِكْرٍ رَيَّا الرَّوَادِفِ رُودِ

وَبَنُو عَمِّهَا شُهُودٌ لِمَا يَفْـ ـعَلُ فِطْيَونُ قُبِّحوا مِنْ شُهُودِ

خَلْفَ بَابِ الفِطْيَونَ وَالبَعْلُ مِنْهُمْ لاَ بِذِي غَيْرةٍ وَلاَ بِنَجِيدِ

فَإِذَا مَا قَضَى اليَهُودِيُّ مِنْهَا وَطَراً قُنِّعُوا بِخِزْيٍ جَدِيدِ[2]

(١) المصدر نفسه ج ١٨، ص ٣٥٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٤.

وانظر ديوان حسان، ح ٢، ص ٢٣٥.

وانظر المجذوب، المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ ص ٥٩.

الديـن والتقاليـد

الوثنية واليهودية

الوثنيون العرب واليهود

ظل العرب البدو يقدرون الشجاعة والبطولة والتضحية في الإنسان، وكانوا يترفعون عن الأعمال اليدوية، وينظرون بازدراء إلى أعمال الحرف والاشتغال رعاة مأجورين، ولم تكن الفلاحة والزراعة من نشاطات القبائل التي تعتد بنفسها، وإنما الاعتداد كل الاعتداد بالفروسية وبما يتعلق بها من شهامة ومروءة.

وكان اليهود يمارسون كل أنواع الصناعات والحرف، وكانوا في الوقت نفسه حذرين خائفين، يتحصنون في القلاع والحصون، هرباً من المواجهة والقتال، ويعمدون إلى الحيلة والخداع للتخلص من الخصوم والأعداء.

فإذا نظرنا فيما تقدم من شعر وأخبار، نجد أنهم يحصرون اليهود في نشاطين: العبادة لكبار السن منهم، واحتراف المهن.

وهذان أمران يجعلان العرب ينظرون إليهم بطبيعة الحال نظرة دونية. ولهذا فإن كلمتا يهود، أو يهودي لم تعن

لديهم الاحترام والتقدير، بل كانت تعني الضعف والخذلان، ورداءة النفس والانحطاط.

العبادة

المتعبد في المنزل

لا تحدثنا المصادر العربية كثيراً عن عبادة اليهود، ولكن لبيداً يتحدث عن صاحبه النعسان على ظهر بعيره، وهو يتجافى عن الأرض. وصورة هذا الصاحب تبين شدة هزاله وضموره، ونحول جسمه من الإجهاد، ودأبه في القيام بعمله، حتى إنه لا يهجع طيلة ليله إلا لماماً، يغلبه فيها النعاس؛ فهو لأرقه، وسهره، وكده، ينكب على وجه مرات، هازاً رأسه، وهو يتمتم بأقوال تبدو متضاربة لمن يسمعها.

ونرى في هذه الصورة السرعة في الأداء، والثرثرة الكلامية يقول:

يَتَّقِي الأَرْضَ بِدَفٍّ شَاسِفٍ ... وَضُلوعٍ تحتَ صُلْبٍ قد نَحَلْ

قَلَّما عَرَّسَ حتَّى هِجْتُهُ ... بالتباشيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ

يَلْمَسُ الأَحْلاسَ فِي مَنْزِلِهِ ... بِيَدَيْهِ كاليَهُودِيِّ المُصَلّ

يَتَمَارَى في الَّذِي قُلْتُ لَهُ ... وَلَقَدْ يَسْمَعُ قَوْلِي حيَّهَلْ[1]

---

(١) شرح ديوان لبيد، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

يتقي: يتجافى. الدف: الجنب. الشاسف: الضامر. التعريس: =

فهذه صورة يهودي عابد، انقطع للصلاة، فهو يتهجد حتى أُخريات الليل، عندما يدركه الصباح، ويواصل الصلاة والقِراءة بصوت شبه مسموع، يردده في أثناء قيامه، ووقوفه، وجلوسه، كلما انتصب أو اعتدل؛ وهو يلاحق حركات القيام والانحناء دون انقطاع، هازاً رأسه باستمرار، غير مُعِير سمعيه لمن حوله. ولكنه يصدر أصواتاً كأن أحداً يحدثه، ولا يكترث بمن حوله، منهمكاً في عبادته، ومنقطعاً عن أي شاغل.

ويلاحظ أن صلاة هذا اليهودي وتهجده هي في داخل منزله، ولكنه منزل متواضع، فهو في صلاته يتوخى الصلاة على قطع من القماش صغيرة، كأنها أحلاس: أي سجاد قد رثّ من طول السجود والجلوس عليه، وعدم تغييرها.

وليس كل اليهود هم هذا اليهودي المصلي المتعبد، وإنما هم فئة خاصة انقطعت للعبادة والصلاة.

وفهمنا من قول لبيد: «**في منزله**» أنه يعني منزله، أي بيته.

وإذا استعنا بأقوال الدارسين في هذا، نجدهم يقولون:

= النزول في آخر الليل. هجته: أيقظته. التباشير: أوائل الصبح، يلمس: يطلب. الأحلاس: جمع حلس، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله؛ أي يطلبها بيديه، وهو لا يعقل من غلبة النعاس. التماري: المجادلة والشك. حيهل: أي أسرع وعجل.

«ومن معتقدات اليهود أن المنزل يعتبر معبداً وتنص عقيدة اليهود على أن المنزل يعتبر أهم شأناً من المعبد»[1].

«يؤيد وجهة نظر جودسل تلك، ما يراه ول ديورانت، من أنه «كان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً، وكل مدرسة معبداً، وكل أب كوهناً، فصلوات الكنيس وطقوسه، كان لها مثيلات موجزة، في البيت، وكان الصوم والأعياد الدينية، يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية، تربط الماضي بالحاضر، والأحياء بالأموات، وبمن لم يولدوا بعد».

«ولم يكن الكنيس معبداً دينياً فحسب، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية»[2].

أما في أمر الصلاة نفسها، فيقول ظاظا:

«كانت الصلاة فريضة واجبة على النساء والرجال. . . وكانوا يصلون جلوساً ووقوفاً، ويركعون ويسجدون، ويبوّقون، ويصومون، ويبكون في تضرعاتهم واعترافاتهم حتى يومنا هذا. وفي أيام الضيقة كانوا يلبسون خيشاً، ويذرون تراباً ورماداً على رؤوسهم، ويمزقون ثيابهم، ويحلقون شعور رؤوسهم وكانوا يحرصون بوجوب وضع الأيادي على الصدر مع حني الرأس قليلاً، كوقوف الخادم أمام سيده، لزيادة الاحترام، ويقرأ الصلاة

---

(١) الشامي، جولة في الدين والتقاليد اليهودية، ص ٢.

(٢) انظر عبد الغني، اليهود واليهودية والإسلام، ص ٥٨.

الحَزان (المنوب من الشعب) بصوت مرتفع، والعاميدة بصوت منخفض، ويكررون العاميدة بصوت عال لكي يسمع الذين لا يعرفون القراءة»[1].

ويقول كذلك:

«كان الأتقياء والمتعبدون يصرفون نحو ساعة من الزمان استعداداً للصلاة، فيما يخص النظافة واللبس وجمع الأفكار وما أشبه ذلك. وكان عزرا يوصي بوجوب غسل الجسم بكل تدقيق قبل العبادة»[2].

كما يقول:

«لم يرد في العهد القديم ما يفيد أن الكهنة كانوا يقومون بالصلاة والتراتيل، فإنه يمكن الاعتقاد، بناء على ذلك، أنه قبل أن يستقر في بني إسرائيل وضع خاص، ووظائف محدّدة للمنشدين اللاويين، كما هو موصوف في سفر أخبار الأيام (أخبار الأيام الأول ١٦ : ٤ ـ ٦، ٣٧ ـ ٤٢، والإصحاح ٢٥ بتمامه) فقد كان معهوداً للأنبياء لا أن يؤموا الصلاة فحسب بل أن يقوموا بالإنشاد والموسيقى والرقص أيضاً. وفي الفقرة الخاصة بتولّي شاؤل الملك يروى أن شاؤل «التقى بزمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم

---

(١) أبحاث في الفكر اليهودي، ص ١٤٤.

(٢) المرجع نفسه.

يتنبأون» (صموئيل الأول ١٠ : ٤). وليس هناك من شك في أن تلك الآلات الموسيقية كانت لمصاحبة الترنم والأناشيد والأشعار، وأن هذه الأشعار كانت من الشعر المقدّس الذي بدأ الأنبياء في ترتيله فوق المرتفعة نفسها، وقبل هبوطهم منها، ولم يوصف هذا العمل في تلك القصة كما لو كان أمراً مستحدثاً لذلك اليوم المعلوم، وإنّما المستحدث في القصة هو أنّ شاؤل عندما التقى بهذه الزمرة من الأنبياء تأثّر بهم، وتنبأ مثلهم، ومن مشاركة شاؤل هذه للأنبياء جاء المثل السائر «أشاؤل أيضاً بين الأنبياء؟» (صمويل الأول ١٠ : ١٢)، وقد تواتر أن ما فعلته زمرة الأنبياء هذه فوق المرتفعة على أيام صمويل، فعله أبناء الأنبياء أيضاً في «بيت إل» والجلجال، وأريحا، والسامرة، وسائر المعابد في أيام إلياس واليسع، وفي الأجيال الأخيرة من عهد الهيكل الأول.

وكذلك نجد أن «مريم» وهي تتزعم جوقة النساء، في أنشودة البحر بمصاحبة الدفوف والرقص قد سميت نبية (الخروج ١٥) ٢٠ ـ ٢١) لأنها في عملها هذا كانت تقوم بما يقوم به الأنبياء، فهي إذن قد تنبأت.

ومن هنا يتأكد لنا أن التغنّي بالأناشيد بمصاحبة آلات الموسيقى والرقص كان من عمل الأنبياء، ومن أجل هذا أيضاً أطلق صاحب سفر أخبار الأيام على اللاويين الذين كانوا يقومون بالإنشاد في المعبد على آلات الموسيقى اسم

«الأنبياء»، كما دعا فعلهم هذا «عمل نبوة»[1].

ويقول ظاظا كذلك:

«لم تكن الصلاة محددة وإجبارية؛ بل كانت تتلى ارتجالياً، حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعمومية.

وعندما خرب الهيكل وسبي بنو إسرائيل من بلادهم إلى بابل وبطلت التقدمات والقرابين، وضعت الصلوات بدلاً منها إلى يومنا هذا. وهذه العبادات بالصلوات تفوق كثيراً العبادات القديمة بالذبائح والتقدمات. جاء في المشنا (البركات ٣٢) إن الصلاة أفضل من القرابين، فإن العبادات بالتقدمات هي عبارة عن تقدمة شيء من مال الإنسان، أي مادة حسية أرضية على مذبح مادي، بخلاف العبادة الروحية بالصلوات، فإنها إظهار عواطف وإحساسات وتقدمة شكر روحية صادرة من نفس الإنسان على مذبح قلبة وعقله وشهواته الجسدية.[2]

وهكذا يقول أيضاً عن كيفية صلاة اليهودي:

«يصلي ويركع ويشكر الله تعالى ثلاث مرات كل يوم، وأحياناً مرتين كل يوم.

وكانت الصلاة مركبة غالباً من النثر ثم من النظم، وتتلى بالغناء في الابتداء، وبالتدريج صارت تستعمل آلات

---

(١) أبحاث في الفكر اليهودي، ص ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الفكر الديني اليهودي، ص ١٤٢.

موسيقية قانونية، كما يتضح من سفر المزامير، وكان يخصص مغنون لهذا القصد، فإن عزرا يذكر في سفره أن بين الذين رجعوا من بابل من السبي كان مائتان من المغنين والمغنيات»[1].

وقد تكرم الأستاذ د. سيد فرج راشد فأمدّني بمعلومات خاصة بصلوات اليهود، ربما تعين على فهم إشارة لبيد السابقة: يقول:

مواقيت الصلاة

صلاة الفجر: ووقتها حسب ما قررته المشنا منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق إلى ارتفاع عمود النهار.

صلاة نصف النهار أو القيلولة: وتجب منذ انحراف الشمس عن نقطة الزوال إلى ما قبل الغروب.

صلاة المساء: ويسمونها صلاة الغروب، ووقتها من غروب الشمس إلى ما يقابل صلاة العشاء عند المسلمين.

طقوس الصلاة

تبدأ الصلاة بشيء يقابل الوضوء، هو غسل اليدين فقط، ثم يوضع الشال الصغير على الكتفين، أو الشال الكبير في الصلوات التي تتم جماعة في المعبد كصلاة السبت والأعياد.

والشال له طهارة خاصة، بأن لا تلسمه النساء، ويوضع

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

في مكان معلوم، والصلاة اليهودية تجب فيها تغطية الرأس إذا قرأوا النصوص المقدسة أو ذكروا اسم الله.

كذلك يلبسون «التِّيفلِّين» وهو عبارة عن علبة صغيرة من الخشب أو الجلد، محفوظ بداخلها قطعة من رق الغزال مكتوب عليها قراءة «السماع» (نصوص من التوراة).

ويجب وضعها عند الصلاة في وسط الجبهة بحيث يُربط شريط الجلد حول الرأس، وتوضع واحدة أخرى على الكف اليسرى، بحيث يُربط شريطها حول اليد، وتكون العلبة مثبتة عند أصل الإبهام».

سجود اليهود

إن الطريقة المعروفة عن سجود اليهود هي كما وصفها ظاظا، ولكنا نجد في شرح بيت لبيد السابق:

يلمس الأحلاس في منزله   بيديه كاليهودي المصل

«قوله يلمس الخ: اللمس: الطلب. والأحلاس: جمع حلس بالكسر، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله؛ أي يطلبها بيديه وهو لا يعقل من غلبة النعاس.. وقوله: كاليهودي المصل؛ قال أبو الحسن الطوسي: كأنه يهودي يصلي في جانب، يسجد على جبينه؛ قال البغدادي: واليهودي يسجد على شق وجهه»[1].

(١) شرح ديوان لبيد، ص ١٨٣.

ويعني هذا أنهم يسجدون على الحقيقة، وفي هذا ما يشير إلى أن السجود كان متبعاً عندهم، ثم أنِفوا منه، واستبدلوه بالطريقة التي يصفها ظاظا. ويدلنا هذا الواقع على أن اليهود الذين عرفهم العرب كانوا اليهود الأوائل الذين حافظوا على الشعائر اليهودية الأولى، قبل أن تتلوث فيما بعد بتفسيرات الكهنة والعرافين بعد التحرير البابلي، وينقل لنا رمضان وصفاً دقيقاً لهذه الأوضاع، فيقول:

«الاستنكاف عن السجود والركوع

مفاجأة أخرى كشف عنها هؤلاء الفلاشا ولا تفسير لها سوى تقديم الأنا. فعندما وصلوا إلى الأرض المقدسة لاحظ الجمهور الأمريكي من التلفزيون لأول مرة تقريباً أن هؤلاء الأحباش يسجدون ويركعون في صلاتهم. وعلقت محطة ان. بي. سي. على هذا المشهد في أوائل عام ١٩٨٥ قائلة إن هذه الحركات تمثل الشعائر اليهودية «القديمة» في الصلاة...

هل معنى ذلك أن تقديم الأنا هو الذي جعل اليهود يتحولون تدريجياً عن الركوع والسجود إلى الانحناء قليلاً وهم وقوف؟

ويستدل من القرآن والتوراة والإنجيل على السواء أن السجود والركوع كانا معروفين من قديم الزمان، فالقرآن يتحدث عن «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا»... لقد ذكر

السجود في القرآن أكثر من الركوع (حوالي ٦٥ مرة مقابل ١٦ مرة)، ومع ذلك اختفى السجود من كل الديانات السماوية تقريباً عدا الإسلام... دعاني صديق يهودي إلى منزله لاشعال شمعة الحانوكاه (عيد النور) وبعد أن لبس طاقيته راح يصلي بالعبرية أو اليديش (لست أدري) وسألته فضولاً: هل تركعون أو تسجدون؟ ضحك ساخراً مستنكراً ووصف الركوع (ناهيك عن السجود) بأنه «مهين» للإنسان، قلت له حتى لو كان على محمل الطاعة؟ قال لو كان هذا ما أمر الله به لما صدقته!

ولكن العهد القديم يشير إلى سجود إبراهيم ولوط (التكوين ٨: ١٢ و١٩: ١١): كما يوجد دليل على ممارسة السجود حتى بعد ظهور الإسلام في القرون الوسطى»[1].

ولعلنا نجد حلاً لمفهوم الصلاة عند اليهود، فيما وصفه محمد سالم الجرح عن إبطال الصلاة عندهم، يقول:

«كونت أوضاع التعبد الجسمانية على اختلاف أنواعها جزءاً هاماً من الحياة الدينية في أعصرها القديمة. وصور العبادة هذه: البروك، الركوع، السجود، الجثو وإكفاء الوجه، ويكثر ورودها في الكتاب المقدس ومعروف أنها كانت متبعة حتى في عصر الهيكل الثاني، وبعد تخريبه كان هناك ميل واضح لهجر هذه العادة القديمة، وبالتأكيد كان سبب ذلك هو حرص الأحبار على الابتعاد عن سلوك النصارى وعاداتهم، وليكن السبب ما

(١) إسرائيل ومصر الإنسان المعاصر، ص ٧٣.

يكون فإن الحقائق ـ وهي محور اهتمامنا ـ واضحة، فإن الصور القديمة لم تنقل من الهيكل (بيت المقدس byt mqdsh) إلى الكنيس (byt hknst). وعندما أدخل الأحبار الأوضاع الجسمانية في الصلاة العادية شرعوها على أساس انحناء القامة والركوع فقط، وهذا لا يعدو الإشارة والتذكرة بالصورة القديمة التي كان السجود واحداً منها، وكان عبارة عن الانبطاح على الأرض مع بسط اليدين والرجلين. وقد حدد أحبار التلمود كيفية الركعات وعارضوا انحناء الجسم أكثر من اللازم، ويتجلى هذا الاعتراض بوضوح في موقف الحبر يهوذا الناسي، الذي حكي عنه أنه رأى أحدهم انحنى أكثر من اللازم فأبعده الحبر، ومن المفيد أن نقارن سجودهم في الهيكل بهز الرأس الذي اكتفوا به في الصلاة. كما أنهم حددوا عدد الركعات حتى لا تزيد عن أربعة، ويذكر مصدر ثنائي وارد في التوسفتا وفي التلمودين: «ومن يركع في مستهل كل بركة وفي ختامها يعلمونه ألا يركع.

هذا التسلسل من الركوع الحقيقي إلى ما هو إشارة وتذكرة فحسب، يتضح أمامنا أيضاً في إكفاء الوجه بعد الصلاة، ففي العصر التلمودي نرى أنهم قللوا منه فلم ينكفئوا على وجوههم حقيقة بل مالوا جانباً وفي فترة الجاءونيم أضافوا رفع الوجه من فوق الأرض، والمرحلة الأخيرة في إبدال إكفاء الوجه هي العادة الحالية الموجودة في زماننا أعني وضع الوجه على اليد اليسرى في أثناء الجلوس أو الوقوف، وليس هناك ما يدل بصورة ظاهرة على خلو إكفاء الوجه من معناه في الاستعمال اللغوي الموجود لدى علماء الشريعة

حين يستعملون إكفاء الوجه في تعبير نشتم فيه رائحة التناقض، فيقولون «لينكفىء على وجهه واقفاً»[1].

هذه هي كيفية الصلاة عند اليهود، بعد أن مرت بتعديلات مختلفة، إلا أن وصف لبيد، وشرح الشراح القدامى له بأنه: «اليهودي يسجد على شق جبينه».

لا يزال غامضاً، فالسجود المعروف هو وضع الجبهة على الأرض، أما أن يسجد على شق جبينه، فهو ما لم يعثر عليه في أوصاف الدارسين السابقين. ولكن العلماء لم يشرحوا البيت السابق من فراغ، أي إنهم كانوا يعلمون أن سجود اليهود، يهود جزيرة العرب الذين صورهم لبيد، كان هو ذاك؛ فاليهود في جزيرة العرب كانوا يسجدون بتلك الطريقة. ونجد تأكيداً لهذه الملاحظة من لبيد في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

روى الطبري: «سجدت اليهود على حَرْفِ وجوههم، لمَّا رُفع الجبل فوقهم، سجدوا، وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهم؛ فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سنة».

(١) دراسات عربية سامية، ص ص ٥٤.

كما روى أنهم: «لمَّا نَظَروا إلى الجبل، خَرَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرقاً من أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفِعت عنا بها العقوبة[1].

الصلاة في المعبد

قال **عمرو** بن معد يكرب:

عَمَرتُ مَجَالَ الخَيْلِ بِالبِيضِ وَالقَنا كَمَا عَمَرَتْ شُمْطُ اليَهُودِ الكَنَائِسَا[2]

وفي تصوير **عمرو** هذا نجد صِفة الضوضاء والجلبة والحركات الكثيرة المطردة، لا سيما القيام، وهزهزة الرأس والبدن «**عمرتُ مجال الخيل بالبيض والقنا**». وهؤلاء اليهود هم فئة خاصة جداً منهم، إنهم متقدمون في السن، شابت رؤوسهم، وتناثرت شعورهم البيضاء، متدلية عليها: «**شمط**». أما البيع، أو الكنائس، فهي التي قال الله عنها: «..... وصلوات» (الحج: ٤٠)[3].

وقيام الليل معروف في اليهود قال الأعشى:

---

(١) تفسير الطبري، ج ١٣، ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩.
وأشكر الدكتور عبد المنعم محمد علي مكي، الذي نبهني إلى هذه الآية ومعناها.

(٢) ديوان عمرو بن معد يكرب، ص ١١٣.

(٣) الجواليقي، المعرب، ص ٤١٩.

فَـإِنِّـي وَرَبُّ الـسَّـاجِـدِيـنَ عَـشِـيَّـةً

أي هؤلاء الشُّمْط السابقين.

أما النصارى، فهم في الشطر الثاني من البيت:

.... وَمَا صَكَّ نَاقُوسَ النَّصَارى أَبِيلُهَا[1]

إن هؤلاء اليهود الشمط يقومون الليل، ويصلّون مرددين الأصوات المنغمة الهادئة، أي إنهم يرتلون ترتيلاتهم في صوت منخفض، مترنمين بها.

وإن الكنائس في قول **عمرو** ذاك، هي في الأصل أماكن تجمعات اليهود للصلاة ـ قبل أن تتخصص بالمسيحية ـ وفي هذا يقول تُبَّع في اليهود:

حَلَّوا حِمَاهُمْ يُعْلِمُونَ حِجَازَهُمْ بِيضَ الكَنَائِسِ بِالعَبِيدِ الحُسَّدِ[2]

نوع الصلاة

أما نوع الصلاة هذه، فهي التهويد، والتهويد: هو الترجيع بالصوت في لين[3]

أي إنهم يغنون في صلاتهم، أو يطربون، أو يصدرون أصواتاً منغمة خافتة.

(١) ديوان الأعشى، ص ١٧٧.

(٢) ابن منبه، التيجان، ص ١١٣، والضمير «حماهم»، يعود إلى «خندف».

(٣) اللسان، «هود»، وانظر شعر الراعي، ص ٢٠٢.

قال أبو قيس بن الأسلت:

وَلَـهُ هَـوَّدَتْ يَـهُـودُ وَدَانَـتْ ... كُلُّ دِينٍ مَخَافَةً مِنْ عُضَالِ[1]

إن ذلك التهويد، أو هذا النوع من الغناء أو الترتيل، هو ما ذكره الراعي في قوله:

وَخُودٌ مِنَ اللائِي تَسَمَّعْنَ بِالضُّحَى ... قَرِيضَ الرُّدَافَى بِالغِنَاءِ المُهَوِّدِ

وقوله أيضاً:

يُجَاوِبُ البومَ تَهْوِيدُ العَزِيفِ بِهِ ... كَمَا يَحِنُّ لِغَيْثٍ جِلَّةٌ خُورُ[2]

فاليهود في صلاتهم إنما يتضرعون، ويتوسلون بكلام موقع، ملحن، له أنغام وانسجام، وفيه خضوع وتذلل، طلباً للمغفرة والعمل الصالح، ذلك أن: التهود: التوبة والعمل الصالح[3].

اليهودي المنعزل المنقطع

لفتت عبادة أولئك اليهود وصلواتهم أنظار العرب، كما لفتت أنظارهم عبادة النصارى وعزلتهم، ونقلوا أوضاعهم، مثلما فعل لبيد، وتحدثوا عن منازلهم العبادية، ونجد نقلاً دقيقاً لكل هذا في شعر **حسان بن ثابت**، الذي عايش

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) اللسان، «هود»، الخود: جمع خريدة، وهي الشابة الناعمة، القريض: الشعر الردافى: الحُداة، العزيف: صوت الجن. الجلة: الكبار من الإبل. الخور: جمع خوراء، وهي الناقة الغزيرة اللبن.

(٣) المصدر نفسه.

اليهود، وتعامل معهم طويلاً في مدينته يثرب. يقول **حسان** في محبوبته:

بَيْضَاءُ لَوَ مَرَّتْ بِذِي نُسُكٍ   يَتْلُو البَيَانَ يَلُوحُ فِي الزُّبْرِ
مُتَبَتِّلٍ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ   سَكَنَ الصَّوَامِعَ رَهْبَةَ الوِزْرِ[1]

فهذا الناسك، هو أحد الشُّمْط اليهود، وكتابه الذي يتلوه هو **الزبر**، وهو منقطع عن الناس، مبتعد عنهم، يعيش وحده. إن صورة هذا الناسك اليهودي هي غير صورة الراهب المسيحي، في مثل قول النابغة:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لأَشْمَطَ رَاهِبٍ   عَبَدَ الإِلٰهَ صَرُورَةٍ مُتَعَيِّدِ
لَرَنَا لِرُؤْيَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا   وَلَخَالَهُ رَشَداً وَإِنْ لَمْ يَرْشَدِ[2]

إن الصورة عند الاثنين متقاربة، إلا أن الفرق هو أن حسان نقل الصورة من مجتمعه: «**يتلو البيان يلوح في الزبر**»، والنابغة نقلها من مجتمعه أيضاً: «**أشمط راهب**».

ومع أن اليهودية لا ترى الرهبانية، فإن صورة الشمط الأولى، تجعل المرء يذهب إلى أن أحبار اليهود الطاعنين في السن، انصرفوا كلية إلى العبادة منقطعين بذلك عن لذات الدنيا ومتاعها، خاصة تلك المتعلقة بالمرأة، لا الخمرة. وانفرد بعضهم، ليعيش في عزلته الخاصة به، إما على شكل

---

(١) ديوان حسان، ج ١، ص ٥٣.

(٢) ديوان النابغة، ص ص ٩٥ ـ ٩٦.

جماعات، كما رأينا سابقاً، أو على شكل أفراد، كما هو الحال هنا.

وهذا ما لاحظه زهير، فقال:

سِوَى رُبَعٍ لَمْ يَأْتِ فِيهَا مَخَافَةً وَلاَ رَهَقاً مِنْ عَابِدٍ مُتَهَوِّدِ(١)

فالمتهود: هو المتقرب، المتوصَّل بهوادة إليه.

إن ذلك المتعبد يرهق نفسه في العبادة، فلا يبالي بمن حوله، حتى إن من يريد الاقتراب منه، يأتي إليه بتؤدة واطمئنان، لِما تبعثه حالته من شعور بالتقدير والاحترام، والرهبة الوجدانية.

إن هذا المتهود، هو الذي جاء في إحدى روايات قول امرىء القيس:

فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبْرَقَ الوِلْدَانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ(٢)

فحسبما قيل: يعني بهذا البيت: يهودياً؛ والمقدس: هو الحبر.

وإذا قارنا هذه الصور بالصور التي دارت حول

---

(١) اللسان، «هود». وفي شرح شعر زهير، ص ١٧٠ «من عائذ متعبد».

الربع: هو المرباع، يعني أنه كان رئيساً للجيش وأخذ الرُّبْع من الغنيمة. الرهق: الظلم، عائذ: يعوذ به ويفضله. المتهود: المتخشع، المتحرج من الإثم.

(٢) اللسان، «قوس». شبرق: مزق.

الرهبان، فإن قول امرىء القيس في وصف البرق:

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ أَمَالَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ المُفَتَّلِ[(1)]

أو قوله:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[(2)]

يعنيان خلوات أولئك الرهبان، وهذا المشهد نراه في اليهودي المنعزل للعبادة في قول علقمة الفحل:

قَدْ نِمْتَ عَنِّي وَبَاتَ البَرْقُ يُسْهِرُنِي كَمَا اسْتَضَاءَ يَهُودِيٌّ بِمِصْبَاحِ[(3)]

وهو ما نراه أيضاً في قول أبي ذؤيب:

يُضِيءُ سَنَاهُ رَاتِقٌ مُتَكَشِّفٌ أَغَرُّ كَمِصْبَاحِ اليَهُودِيِّ دَلُوجِ[(4)]

ونستوضح هذا الأمر من سفر اللاويين الذي يقول: «وكلم الرب موسى قائلاً: أوصِ بني إسرائيل أن يُقَدِّموا إليك زيت زيتون مرضوض نقياً للضوء لإيقاد السُرُج دائماً. خارج حجاب الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هارون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائماً فريضة دهرية في أجيالكم على

---

(١) ديوان امرىء القيس، ص ٢٤. السليط: الزيت. الذبال: الفَتائل. المفتل:

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١. القفال: العائدون.

(٣) ديوان أوس، ص ١٥.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ١٢٩. الراتق: الملتئم من السحاب.

المنارة الطاهرة يُرَتِّب السُرُج أمام الرب دائماً»[1].

أي إن مصباح اليهودي هذا، هو سراجٌ وَقُودُه زيت الزيتون، وهو ليس مصباح يهودي عادي، بل مصباح يهودي من كهنة اليهود.

التوراة

ومهما يكن الأمر، فإن اليهود (في جزيرة العرب)، رأوا أنهم متبعون للتوراة الموسوية، وتابعون للديانة الموسوية أيضاً، يقول **أوس بن دني القرظي**:

فَنَحْنُ عَلَى تَوْرَاةِ مُوسَى وَدِينِهِ[2]

وكان اليهود يقرأون في التوراة، التي كانت مجموعة في شكل كتاب «مصحف»، يقول جرير:

قَدْ غَيَّرَ الرَّبْعَ بَعْدَ الحَيِّ إِقْفَارُ كَأَنَّهُ مِصْحَفٌ يَتْلُوهُ أَحْبَارُ[3]

وواضح من قوله: «**يتلوه أحبار**»، أن الذين كان يقرأون، كانوا خاصة الخاصة من اليهود، أي علماؤهم، أو أحبارهم؛ وهم الذين رأيناهم في صورة «**الشمط**».

وهؤلاء الأحبار، الشمط، هم أيضاً «**السفاسرة**» في قول

(١) التوراة، ص ١٩٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ١٠٦.

(٣) ديوان جرير، ص ١٩٧، والرواية فيه: قد غير الحي». وهذا غير متناسق. انظر، ياقوت، «الدام».

أبي طالب:

فَـإنِّـي وَالـسَّـوَابِـحَ كُـلَّ يَـوْمٍ   وَمَا تَتْلُو السَّفَاسِرَةُ الشُّهُودُ[1]

وهم أيضاً الذين سماهم ابن الزبعرى، «**السفاسير**» في قوله:

أَلْهَى قُصَيّاً عَنِ المَجْدِ الأَسَاطِيرُ   وَرَشْوَةٌ مِثْلُ مَا تُرْشى السَّفَاسِيرُ[2]

وعلينا أن نلاحظ أن تلك الكتب التي كانت بي يدي أحبار اليهود كانت كتباً قديمة بالية، يتداولونها فيما بينهم، وكانوا يحرصون على توارثها فيما بينهم، ذلك أن الكتبة بينهم كانوا قليلين، ولا يسمحون بإعادة نسخها إلا لكتاب مؤتمنين عندهم، لا سيما يهود شمال الحجاز، الأشد محافظة، أما في اليمن، فكانوا أكثر تحرراً، إذ سمحوا للمتعلمين منهم بنسخها «**وليد يمان**»، كما في قول لبيد:

مُـتَـعَـوِّدٌ لَـحِـنٌ يُـعِـيـدُ بِـكَـفِّـهِ   قَلَماً عَلَى عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَانِ[3]

وسنرى أحاديثهم عن كتابتهم بعد قليل.

والجدير بالذكر فيما يخص يهود الحجاز، أنهم من أشد اليهود تعصباً لديانتهم، على الرغم مما خالطها من الوثنية والشرك، فهم من اللاويين، وينتسبون إلى القيادة

---

(١) التاج «سفر».

(٢) شعر ابن الزبعرى، ص ٣٧.

(٣) شرح ديوان لبيد، ص ١٣٨. عسب: جمع عسيب. ذبلن: ضمرن. البان: شجر البان.

الدينية مباشرة، حتى كان لقب بني قريظة وبني النضير: الكاهنين، أي إنهم يتوارثون الزعامة الدينية (الكهانة) فيما بينهم، وهم يرون أنهم من الأسباط، حتى قال فيهم تبع:

حَنَقاً عَلَى سِبْطَيْنِ حَلاَّ يَثْرِبا ....[1]

وكانت بنو قريظة المتقدمة في هذا الشأن، وأحبارها البارزون فيهم، يقول تبع:

حَتَّى أَتَانِي مِنْ قُرَيْظَةَ عَالِمٌ مِنْ خَيْرِ حَبْرٍ فِي اليَهُودِ مَسوَّدُ[2]

أما المتقدمون فيها جداً ـ ولعل هذا الحبر منهم ـ فهم: **بنو مروان**[3].

صلاة الخمر

علمنا أن اليهود يؤدون الصلاة الخاصة بهم ترنيماً وتنغيماً، قياماً وقعوداً، متوجهين بذلك إلى عبادة إلٰههم.

والطريف في أمر هذه الصلاة أن الخمر كانت جزءاً من شعائر تجّارها وطقوسهم، فكانوا يباركونها بصلواتهم، ويقومون على خدمتها، الأمر الذي يجعل هذه التجارة عند بعض خاصتهم ذات قدسية وحرمة، اكتسبتها من شريعتهم، يقول الأعشى:

---

(١) ابن منبه، التيجان، ص ١١٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الأغاني، ج ٢٢، ص ١٠٠.

وَصَـهْـبَـاءَ طَـافَ يَـهُـودِيُّـهَـا   وَأَبْـرَزَهَـا وَعَـلَـيْـهَـا خُـتُـمْ
وَقَـابَـلَـهَـا الـرِّيـحَ فِـي دَنِّـهَـا   وَصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[1]

إن اليهودي يطوف حول الخمر، كطواف الزائر حول معبوده؛ أي ممارسة شعائرية دينية، ثم هو يصلي لها، أي: يبرك، ويدعو أدعيته الدينية، وهو على دنها ارتسم، أي: كبّر، ودعا، وتعوذ؛ إنه: يعتني بها، ويستحيط حولها من أي شر وأذى، مستحضراً في ذلك معتقده الديني.

وهذا يعني أن للخمر قوة سحرية امتزجت بالدين، ولهذا فإن اليهود، الذي اقتادهم بختنصر أسارى إلى بابل، فيما يعرف بـ «السبي البابلي»، ولبابل شهرة في أعمال السحر، كانوا قد تخصصوا في تجارة الخمور، ومزجوا الطقوس الوثنية بالطقوس الدينية، فصارت الخمر مقدسة عندهم، يقول الأعشى في الخمر:

لَهَا حَارِسٌ مَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا   إِذَا ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا
ببابل لم تعصر......[2]

فاليهودي الأول: «**صلى على دنها وارتسم**».

وهذا اليهودي الآخر:

حارس ما يبرح الدهر بيتها   إذا ذبحت صلى عليها وزمزما

---

(١) ديوان الأعشى، ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

إنهما كليهما يؤديان طقوس الصلاة اليهودية، التي رأينا مظهرها عند المتعبدين، ويصاحب هذه الطقوس ما صاحب تلك الصلاة عند المتعبدين من تنغيم وترتيل: «**ارتسم**» و «**زمزما**»، ومن قيام عندها، وسجود أمامها.

ولقد عرفت صلاة الخمر لليهود، على النحو السابق، كما قال الأخطل:

وَدَافَعَ عَنِّي يَوْمَ جِلَّقَ غَمْرَةً وَصَمَّاءَ تُنْسِينِي الشَّرَابَ المُهَوَّدَا[1]

الخمر «**الشراب**»، جاء من مصدر يهودي، تحققت فيه صفات الجودة والعتق والبركة، «**المهودا**»: أي الصلاة والدعاء من قبل مصادر يهودية دينية موثوقة.

وإذا ربطنا بعد ذلك، الغناء في شعر الراعي بالصفة: «**المتهود**»، أو استعارته لأصوات الجن بأنها «**تهويد**»، باليهود، فإن معنى هذا أن نساء اليهود كُنّ يصلين الضحى أو في الليل، كما يفعل رجالهن. والأرجح أن تكون هذه النساء هن نساء المعبد نفسه، لأن الراعي ينسب الغناء للمغنيات والمسمعات.

ونعود بعد لصلاة اليهود وتمتماتهم، لنقول:

إن طقوس هذه الصلاة، سواء كانت خاصة، أو إلى

(١) شعر الأخطل، ج ١، ص ٣٠٦، وشرح محقق شعر الأخطل المهود: المسكن، المخثّر. وأصل التهويد النوم. جلق: دمشق. الغمرة: الشدة. السلاف: أول ما يصب من الخمرة.

جانب الخمر، ليست طقوساً دينية جديدة، وإنما هي الطقوس الوثنية التي كان يمارسها الوثنيون أمام آلهتهم.

المعابد

مَرَّ بنا أنهم كانوا يطلقون على معابد اليهود، أي بيعهم: «**الكنائس**»، وإن تكن الكنائس والأديرة معروفة للنصارى كذلك. وفي هذه المعابد يجتمع الأحبار، يقضون فيها أوقاتهم، تهجدا وصلاة. ومع أن هذا المعبد، أو الكنيس المنزلي، كما سمّاه لبيد، بسيط جداً، ليس فيه رِياشٌ ومَتاعٌ مُغْرٍ، فإن اليهود ـ كما النصارى ـ احتفظوا في معابدهم بتماثيل، أَوْلَوْها عناية خاصة؛ فبخروها، وعطّروها، وجعلوها في مكان حريز، فوق المحراب. يقول **قيس بن الخطيم**:

كَأَنَّ القُرَنْفُلَ وَالزَّنْجَبِيلَ وَذَاكِي العَبِيرِ بِجِلْبَابِهَا
دُوَينَ السَّمَاءِ بِمِحْرَابِهَا نَمَتْهَا اليَهُودُ إِلَى قُبَّةٍ[1]

وهذا، كما هو واضح، تمثال مجسم لامرأة، زيّنوها، وألبسوها لباساً فضفاضاً جذاباً.

أما المعبد نفسه، فهو بيت المرتفعات[2]، أو أحد

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٣٥.
قال الأصمعي: المحراب: الغرفة.
(٢) سوسة، العرب واليهود ص ٥٣٥ـ ٥٣٦.

بيوت المرتفعات[1]، الذي فيه الإله (الإلهة)، والذي يسجدون له[2]؛ أي إن هؤلاء اليهود: هم كهنة المعبد.
يصف سيد فرج هيكل سليمان، الذي بنيت المعابد على نسقه، متأثراً إلى حد بعيد بالمعابد الكنعانية، فيقول:

«التصميم العام لمعبد سليمان، يكاد يماثل تصميم المعبد الكنعاني مع اختلافات غير جوهرية أهمها أن قدس الاقداس كان في نهاية المعبد. ودليلنا على ذلك أن المعبد الكنعاني الذي تم اكتشافه في بيت شان والذي يعود تاريخه إلى عام ١٣٠٠ق .م، كان نقطة تحول في تصميم المعبد الكنعاني، فهو يتكون من غرفة خاصة مربعة الشكل تقع في نهاية الغرفة الرئيسية للمعبد، ويتم الوصول إلى الغرفة العليا بواسطة بعض الدرجات حيث تمثال للإله، وتمثل الغرفة العليا قدس الأقداس الذي يعتبر صفة مميزة لمعبد سليمان فيما بعد، وكانت هذه الصفة المميزة موجودة أيضاً في معابد مصر والعراق. كما كان هناك مذبح صغير أمام التمثال المرتفع حيث تقدم البخور في الغرفة العلوية، وربما كانت توقد أيضاً بعض الشموع وفي الفناء الخارجي للمعبد يوجد المذبح الرئيسي حيث تحرق القرابين»[3].

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٣٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) القدس عربية إسلامية ص ٥٧.

إن السؤال هو: إذا كان اليهود يعظمون الرجال من الأنبياء المرسلين: مثل **موسى وداود وسليمان**، ويعظمون غيرهم من أبطالهم، فلماذا احتفظوا في جوف معابدهم **بتمثال المرأة؟**.

إنه لمن المعلوم جيداً أنهم تأثروا بالديانات الوثنية في أرض كنعان، فصاروا يعظمون الإله «**بعل**»[1].

وكانت رموزهم السحرية مأخوذة عن غيرهم ممن سبقوهم، كما تثبت ذلك الدراسات الحديثة، وهذا الاتباع والتقليد يعني أنهم ادخلوا الإلهة «**عشتار**»، في معتقداتهم، وكانت معبودة في جزيرة العرب، تحت مسميات مختلفة، منها «العزى»، و «مناة»... إلخ.

إن هذا التمثال المعبود، تمثال منقول عن سكان المنطقة العربية، فعشتار، إلهة الخصب، كانت معروفة مثلاً عند السومريين والكنعانيين. وكان للمعبد الكنعاني محراب[2].

وليس هذا التكييف تكيفاً متأخراً، بل هو قديم، يعود إلى مرحلة التيه، ذلك:

«أن العبرانيين (أتباع موسى) قد صنعوا في أثناء وجودهم في

---

(١) سوسة، العرب واليهود ص ٣٩٦.

(٢) انظر صورة إلهة الخصب، والمحراب: سوسة، العرب واليهود، تصوير رقم ٢٥ـ ٢٦.

صحراء التيه بسيناء ما يعرف بفلك الميثاق وزينوه كما تبين النصوص بتماثيل تشابه مشابهة تامة التماثيل المجنحة التي صنعها قدماء المصريون للإلهة (معات)، التي تجسد الحق والعدالة»[1].

جاء في الإصحاح التاسع عشر:

وكلم الرب موسى قائلاً: . . . أنا الرب إلهكم، لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم»[2].

وفي الصحاح السادس والعشرين:

«لا تصنعوا لكم أوثاناً، ولا تقيموا تمثالاً منحوتاً أو نصباً، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوَّراً لتسجدوا له»[3].

ويكشف التدقيق في هذا التمثال عن العقلية التي كان أصحابها يفكرون بها: فأدوات الزينة هي:

القرنفل، والزنجبيل، والعطور، والجلابيب؛ وهي البضاعة التجارية في المنطقة الوثنية العربية، وقد كيّف اليهود معبوداتهم، مع أشكال معبودات العرب الوثنين، وحولوها إلى إناث، كما فعل العرب؛ بل جعلوها تتلاءم مع أذواق العرب في تقدير الضخامة، إذ تدل كلمة «**جلبابها**» على أنها

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٦٩. نقلاً عن سامي سعيد الأحمد في كتابه الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، ص ١٥.

(٢) التوراة ص ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠١.

كبيرة الحجم، أي إن التمثال كان تمثالاً كبيراً يحتل مساحة واسعة من قبة المحراب، هذا أمر؛ أما الأمر الآخر، فإن أدوات الزينة هذه، أي العطور خاصة، هي من تجارة جنوب الجزيرة العربية، وهذ دليل على أن العقلية المسيطرة على أذهان اليهود هي عقلية الممرات التجارية، التي اشتهرت بهذا النوع من الاستيراد[1].

واستناداً إلى وضع هذا التمثال، فإن المفترض أن يكون المحراب خاصة، والمعبد عامة، مزينين بالرسومات والنقوش المذهبة على غرار المعابد الوثنية، ففي معابد اليهود كانت هناك صور للبشر، فمن ذلك: أنهم عندما انتقم منهم **مالك بن العجلان**:

«أخذوا يصورون مالكاً في بيعهم وكنائسهم في صورة شيطان رجيم، يلعنونه كلما دخلوا في هذه البيع، وكلما خرجوا منها»[2].

ولعل أشهر التماثيل المعروفة في معابدهم، هي تماثيل «**الترافيم**». ولا بد أن يكون المذبح على غرار **الغبغب** في الديانة الوثنية.

والدليل على أن اليهود كانوا متكيفين مع الديانة

---

(١) مهران، تاريخ العرب القديم ص ٢٣١.

(٢) الأغاني، ج ٢٢، ص ١٠٥، ياقوت، معجم البلدان، «مدينة».

الوثنية، أنهم كانوا يقدِّرون **اللات**، فقد كانت:

«اللات صخرة مربعة، وكان يهودي يَلُتُّ عندها السَّويق»[1].

يصف شنوده، عبادة اليهود، على النحو التالي:

«وكان اليهود يعبدون الشمس ويبخرون لها على سطوح المنازل وفوق قمم الجبال، بل كانو يعبدون ويبخرون لها متجهين نحو الشرق داخل هيكل أورشليم ذاته. وكانوا كغيرهم من الشعوب الوثنية يعبدون القمر، ويعبدون النجوم معتقدين أنها تدير الكون وتدبر أمور البشر وتنبئهم بالمستبقل، ويعبدون المنازل التي هي الكواكب الاثنا عشر، وعلى العموم كانوا يعبدون كل جند السماء التي هي النجوم والكواكب وجميع قوى الطبيعة. وكانوا كالوثنيين يقيمون لهذه الآلهة وهذه المعبودات المختلفة، الأصنام والتماثيل والأنصاب والسواري ذات الأشكال المختلفة والأحجام المختلفة من الحجر أو الخشب أو من المعادن المختلفة ولا سيما الذهب والفضة والنحاس. فكانوا ينحتونها نحتاً، أو يسبكونها سبكاً، جاعلين إياها في هيئة الذكور أو الإناث البشرية، أو في هيئة البهائم أو الطيور أو الأسماك. وقد يرسمونها رسماً على جدارن بيوتهم أو قبورهم أو هياكلهم، بل لقد رسموها على جدران هيكل أورشليم نفسه. ومن أسماء التماثيل التي ذكرتها التوراة «تمثال الغيرة» و «تمثال السارية»

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام ص ١٦.

و «تمثال الشكل» . وقد أحبوا على الخصوص تماثيل العجول التي كانت عبادتها منتشرة في الشرق الأوسط كله ولا سيما في بلاد الكلدانيين التي هي مسقط رأس اليهود، وكانوا يصنعونها في الغالب من الذهب. . . وكان اليهود كالوثنيين يحتفظون بتماثيل لآلهتهم ومعبوداتهم ويستشيرونها في كل شئونهم. وكانوا يسمونها «الترافيم». . . وجعلوا الحية صنماً باسم «نحشتان» وعبدوه، إذ كانت الحية من معبودات كثير من الشعوب الوثنية. . . وكانوا يختارون لإقامة هذه الهياكل والمذابح الجبال والتلال والمرتفعات والأكمات العالية، كما كانوا يعبدون بعض آلهتهم الوثنية تحت الأشجار الخضراء وفوق سطوح المنازل. وكان اليهود في عبادتهم الوثنية يتخذون لهم كهنة وثنيين منهم من غير سبط لاوي المختص بالكهنوت في الشريعة اليهودية، وإن كان بعض اللاويين زاولوا الكهنوت الوثني. وتسمى التوراة أولئك الكهنة الوثنيين بالكماريم. وكان اليهود أحياناً يجمعون بين عبادة الله وعبادة الآلهة الوثنية، معتبرين أن الله ليس إلا واحداً من هذه الآلهة العديدة، وإن يكن مختصاً باليهود كما يختص كل إله من الآلهة الأخرى بشعب بعينه»(١) .

وهكذا، فإن الديانة اليهودية في بلاد العرب كانت

(١) اليهود ص ص ٤٨٧ـ ٤٨٨. «الترافيم وهي تماثيل صغيرة للآلهة الوثنية». المرجع نفسه ص ٤٩٩.

مزيجاً بين الوثنية والعبادة اليهودية[1].

أما المحراب الذي ذكره ابن الخطيم:

.... **دوين السماء بمحرابها**

فكانت قبلته تجاه القدس، إذ:

«كانوا يتجهون في صلواتهم إلى جهة أورشليم. وفي أورشليم إلى جهة الهيكل قبلة لهم وهذه العادة متبعة ليومنا هذا»[2].

ويؤيد هذا أن المسلمين في أول الإسلام كانوا يتوجهون في صلاتهم نحو القدس أيضاً، قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

ولكن توجه المسلمين كان نحو بيت المقدس، وليس إلى أماكن عبادة اليهود الوثنية، فيما يزعمون أنه الهيكل.

التفكير الخرافي

امتلأت كتب السير والتورايخ الأولى بالإسرائيليات التي

---

(١) يرى مارغليوث أن اليهود اتخذوا الآلهة العربية اليمنية من ضمن معبوداتهم، بل إنه يربط بين إلههم (يهوه)، والإله: (ياه) في بلاد العرب، ثم بين أوس، بمعنى العطية، وتركيب الكلمة (أوش) Margoliouth, The Ralation..., pp. 20- 21

(٢) ظاظا، أبحاث في الفكر اليهودي ص ١٤٤.

رافقت إسلام عدد من علماء اليهود في الدين الإسلامي، فنقلوا كثيراً من المعارف من كتبهم وخيالاتهم إلى التراث الإسلامي، ولعل أشهر شخصية قصصية عرفها التاريخ العربي، هي شخصية **كعب الأحبار**. وليس بنا حاجة إلى هذا الموضوع[1]، إذ إن ما يهمنا هو الفكر الخرافي قبل الإسلام.

ولا يظهر التشابك بين الأدب العربي والأدب العبراني قبل الإسلام، إلا في صورة محدودة، لعل من أبرزها، شخصية **لقمان الحكيم**، التي اتخذت ملمحين واضحين: وثنياً ويهودياً[2].

نجد مثل هذا في الأسطورة التي تختلط بالتاريخ عن شخصية البسوس، فهي في الأدب العربي ذات وجهين:

الأول:

«البَسُوسُ: اسم امرأة، وهي خالة جَسَّاس بن مُرَّة الشَيْباني؛ كانت لها ناقة يقال لها سَرَابِ، فرآها كُلَيْبُ وائلٍ في حِماه وقد كَسَرَتْ بَيْض طيرٍ كان قد أَجاره، فرمَى ضَرَعَهَا بسهم، فَوَثَبَ جَسَّاس على كليبٍ، فقتله، فهاجت حَرْبُ بكرٍ وتَغْلِبَ ابني وائل بسببها أَربعين سنة حتى ضربت بها العرب

(١) انظر في هذا، أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات، ص ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٢) الجاحظ، الحيوان ج ١ ص ٢١.

المثل في الشؤم»[1].

الثاني:

جاء تفسيراً للآية الكريمة: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فقد روي عن ابن عباس قوله:

«هو رجل أُعَطِيَ ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكان له امرأَة يقال لها: البَسُوسُ، وكان له منها ولد، وكانت لهُ محبَّة، فقالت: اجعل لي منها دعوة واحدة، قال: فلك واحدة، فماذا تأمرين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أَجمل امرأَة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها، رغبت عنه، وأَرادت شيئاً آخر، فدعا الله عليها أَن يجعلها كلبة نَبَّاحَةً، فذهبت فيها دعوتان، وجاء بنوها، فقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة تُعَيِّرنا بها الناسُ، فادع الله أَن يعيدها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث في البَسُوس، وبها يضرب المثل في الشُّؤمِ»[2].

---

(١) اللسان، «بس».

(٢) المصدر نفسه.

التعشير

إن كنا رأينا جانباً من امتزاج التفكير الديني اليهودي بالتفكير الديني الوثني، فإننا هنا أمام امتزاج في الثقافة الشعبية العربية واليهودية. يقول **عروة بن الورد**[1]:

وَقَالُوا احْبُ وَانْهَقْ لاتُضِيرُكَ خَيْبَرٌ	**وَذَلِكَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ وَلُوعُ**
لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى	**نُهَاقَ الْحَمِيرِ إِنَّنِي لَجَزُوعُ**

فلقد نسب **عروة** هذا التصرف إلى اليهود. وعلى الرغم من أن **المعري** قال:

«وكانت اليهود إذا طمعت في الرجل يَقدُم عليهم، يقولون له على سبيل السخرية: أعل تلك الرابية، فانهق عليها نهاق الحمار عشر مرات، لتأمن بذلك حُمّى خيبر»[2].

وسواء أكان ذلك على سبيل السخرية، كما يرى **المعري**، أم كانت حقيقة، كما يثبتها الشاعر إلى دين اليهود، أي إنه جزء من المعتقد الديني الخرافي لليهود، فإن العرب

---

(١) ديوان عروة والسموأل، ص ٤٦. احب: ازحف على يديك وبطنك. انهق: أي إنهم كانوا يقولون: من دخل خيبر ونهق عشر مرات، لم تضره الحمى. الولوع: من ولع به: أغري به.
ولم ينسبه المعري في الفصول والغابات إلى أحد ص ص ٣٥٧ـ ٣٥٨.

(٢) رسالة الصاهل والشاحج ص ٣١٥.

صدقوا ذلك، وكانوا يفعلونه[1]، فأصبح من التراث الشعبي المشترك بينهم، لا سيما أن مثل هذا الاعتقاد شائع بين العرب. يقول أحدهم:

قَوْمٌ إِذَا اخْضَرَّتْ نِعَالُهُمُ ... يَتَنَاهَقُونَ تَنَاهُقَ الحُمُرِ[2]

الأساطير والخرافات

أسطورة كَحْل

يذكر أن عرار وكحل بقرتان كانتا في بني إسرائيل، فقُتلت إحداهما بالأخرى، فوقعت الحرب بينهم، يقول ابن عنقاء، بعد أن تم الصلح بين عبس وذبيان:

بَاءَتْ عَرَارِ بِكَحْلِ والرِّفَاقِ مَعاً ... فلا تَمَنُّوا أَمَانِيَّ الأَضَالِيلِ

وقال **عبد الله بن الحجاج الثعلبي الذبياني**:

بَاءَتْ عَرَارِ بِكَحْلِ فِيمَا بَيْنَنَا ... وَالحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الأَلْبَابِ[3]

أسطورة سهيل

ويقال: إن سهيلاً كان عشاراً باليمن[4].

---

(١) الألوسي، بلوغ الأدب ج٢، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) الأشناندانى، معاني الشعر ص ٦٣.

(٣) أبو عبيدة، النقائض ج ١ ص ١٠٧. وانظر اللسان، «كحل».

(٤) المعري، رسالة الصاهل والشاحج ص ٣٠٦، وانظر ص ص ٣١٣ ـ ٣١٤.
وعلق المعري، فقال:
«وهذه الأحاديث من فرية أهل الكتاب الأول».

ومن أمثالهم: أكبر من عجوز بني إسرائيل.

قالوا: هي شارخ بنت يسير بن يعقوب عليه السلام؛ كانت لها مائتا سنة وعشر سنين، فلما مضت لها سبعون، عادت شابة، وكانت تكون مع يوسف عليه السلام(١).

خرافات المسخ

الفأر

تزعم العامة أن الفأرة كانت يهودية سحارة(٢).

الأَرَضَة

تزعم العامة أن الأرضة يهودية. ولذلك يلطخون الأجذاع بشحم الجزور(٣).

الضب

الضب يهودي. قال بعض القصاص لرجل أكل ضباً: **«اعلم أنك أكلت شيخاً من بني إسرائيل»**(٤).

الجري Fish Kosher, with seals and fins

يروى أن الجري كان أمة، فَمُسخ. ولهذا تنفر منه اليهود(٥).

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ح ٢، ص ١٦٨.

(٢) الجاحظ، الحيوان ج ٦ ص ٤٧٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٧.

قال الجاحظ في الجري ص ٢٣٥.

«قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدماغ، يلتهم العِذِرة، ويأكل

العادات

ليس بأيدينا من عادات اليهود إلا النزر الذي لا يعطي صورة عن أحوالهم، ومن هذه:

الخُنَّاز

هم اليهود الذين ادخروا اللحم حتى خَنِز.

وفي الحديث الشريف:

«لولا بنو إسرائيل، ما انتن اللحم، ولا خنز الطعام؛ كانوا يرفعون طعامهم لغدهم»، أي: ما نَتُن، وتغيَّرت رائحته[1].

وساخة المنازل

وجاء في الحديث الشريف:

«لا تَشَبَّهوا باليهود، تجمع الأكْباء في دورها»، أي: الكُناسات[2].

وجاء في الحديث الشريف أيضاً:

«اليهود أنتن خلق الله عَذِرة»، أي: الفناء أو ذو

الجرذان صحاحاً والفأر؛ وزَهِم، لا يستطاع أكله إلا محسياً، ولا يتصرف تصرف السمك... ويرمي كله إلا ذنبه».

والجري: هو الذي يقال له بالفارسية: مار ماهي.

(١) اللسان، «خنز».

(٢) المصدر نفسه، «كبا».

بطونهم، أو المجالس[1].

وكانت العذرات تلقى **بالأفنية**.

وساخة أماكن العبادة

وجاء في المثل:

«لا تكونوا كاليهود، تجمع أكباءها في مساجدها»[2].

وساخة البدن

لَبُود اليهود:

اللَّبُود: دويبة تنشأ من الوساخة، تشبه القَمْل، ولليهود شهرة بالوساخة والنتن؛ ومنهما يتولد القُراد[3].

دهن الميّت الزيت

وهم بذلك يتعرفون عليه، أحي هو أم ميت.

قال **سالم بن دارة**، في قوم ينسبهم إلى اليهود:

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ دَهَنُوا اسْتَهُ ... بِزَيْتٍ وَحَنُّوا حَوْلَهُ بِقِرَامِ[4]

---

(١) المصدر نفسه. «عذر».

(٢) المصدر نفسه، «كبا».

(٣) الهمذاني، شرح مقامات بديع الزمان ص ٣٨٤.

(٤) اللسان، «حمم». وانظر الحيوان ج ١ ص ٣٧٥. وانظر عن المسح بالزيت، نعناعة، المشكلة اليهودية ص ٢٠٣.

التَّبَخُّر

المُقل: الكندر الذي تدخِّن به اليهود[1].

الخوف من الدم

يقول ابن مقبل في ناقته:

فِيهَا مِراحٌ إِذَا مَالَ الإِرَانُ كَمَا   نَجَّى اليَهُوديُّ يَسْتَدمِي إِذَا رعَفَا[2]

أي يمشي مطأطىء الرأس، يقطر منه الدم.

اتخاذهم علامة مميزة

وهي التي يسمونها: عسلي اليهود[3].

طبخ السميد

قال ابن ميادة:

جَارِيَةٌ آبَاؤُهَا يَهُودُ
نَمى بِهَا مِنْ النّضِير الصَّيدُ
بُنَّ لَهَا النَّشِيلُ وَالسَّمِيدُ
جَمٌّ نَقاً لَبَّدَهُ العُهُودُ[4]

---

(١) اللسان، «مقل».

(٢) ديوان ابن مقبل ص ١٨٨.
مراح: نشاط. نجى: أسع. يستدمي: يطأطىء رأسه، ويسير يقطر منه الدم.

(٣) اللسان، «عسل».

(٤) البطليوسي، الفروق بين الحروف الخمسة، ص ٨٤٧. بن لها: أقيم لها. جم نقا: ملمسه، النقا: عظم العضد. النشيل: ما انتشلته بيدك

تنقية اللحم من الشحم

النَّوَقة هم الذين ينقون الشحم من اللحم لليهود، وهم أمناؤهم. وهو جمع نائق، مقلوب من ناقىء.

ويقال: نُقْ نُقَ! إذا أمرته بتمييز اللحم من الشحم[1].

إطالة اللحى الكثيفة

مَرّ بنا قول عمرو بن معديكرب: «كما عمرت شمط اليهود الكنائسا». وفي هذا بيان لترك اللحى عند النُسَّاك اليهود، إضافة إلى تطويل شعر الرأس.

إطالة النوم

من المعروف أن الفهد من أطول الحيوانات نوماً، وأشدهم كسلاً، وقد وصفوا اليهودي بالفهد لهذا، فكان: الصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهودي[2].

الخصاء

يعد الخصاء من الشعائر الدينية الوثنية القديمة، عندما كان الإنسان يقدم القرابين البشرية للآلهة، ثم أخذ يقلص هذه العادة شيئاً فشيئاً، ويخفف منها، ويستبدل بها غيرها، إلى أن

من قدر اللحم بغير مغرفة. السميد: لون من الطعام. لبده: ركب بعضه بعضاً.

(١) اللسان، «نوق».

(٢) الجاحظ، الحيوان ج ٦ ص ٤٧٦.

وصل الأمر في بعض جوانبه إلى الاكتفاء بخصاء الرجال، وتركهم عبيداً للمعبد. وأدخل اليهود ممارسة الخصاء في شعائرهم، فكانوا يفعلونه فيمن يرتكب جريمة الزنى أو يتهم بها، وتثبت القصة التالية تلك الممارسة، يذكر أبو عبيدة:

«أن رجلاً من الضباب أسره بنو عبد الله بن غطفان. . .، فاستودعه الذي أسره يهودياً، ليغزو ثم يعود، فاتهمه اليهودي بامرأته، فخصاه»[1].

وفي هذا يقول قيس بن زهير العبسي لحَنْبَص المحاربي:

أُكَلَّفُ ذَا الخُصْيَيْنِ إنْ كَانَ ظَالِماً وَإنْ كُنتُ مَظْلُوماً وَإنْ كُنتُ شَاطِنَا
خَصَاهُ امْرُؤٌ مِنْ آلِ تَيْمَاءَ طَائِرٌ وَلا يَعْدَمُ الإنْسِيُّ وَالجِنُّ كَائِنَا[2]

الاعتقاد الخرافي في الحَوَل

جاء في تفسير الآية: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أن اليهود قالوا: إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من ورائها جاء الولد أحول[3].

(١) النقائض، ج ١، ص ١٠.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ص ٢٠ ـ ٢١. شاطنا: بعيداً نائياً.

(٣) الطبري، تفسير الطبري، ج ٤، ص ص ٣٩٧ ـ ٤١٦.

استخدام البوق (الشبور) Blowing Shofar

ترددت في كتابات الأقدمين عبارة: «ولو نفخت في شبور اليهود»[1].

والشبور: بوق. وهذا يعني أن اليهود كانوا يستخدمون في النداء للحرب، أو الصلاة، ذلك النوع من الأدوات، وهو بوق مصنوع من القرن.

نقل الموتى إلى النجف

تنقل اليهود موتاها إلى النجف، بالعراق، لأنه في اعتقادهم أن إبراهيم عليه السلام ذكر: أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد[2].

اللعن

ليس اللعن هنا هو اللعن الموجه لمن يُطرد من رحمة الله، أي هو لعن ضد من يقف ضد الله سبحانه وتعالى، وإنما هو اللعن الممارس في الديانات الوثنية. أي تجسيم الأشياء والأشخاص، وتوجيه اللعنات إليهم بطريقة تربط بين الألوهيم (الياهو ـ أو ـ الأدوناي) وسدنة المعبد:

---

(١) السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ٣٧٩، وانظر، الجاحظ، الحيوان، ج ٧، ص ٢٤٦.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، «بانقيا» وانظر، التاج «نمى».

الكهنة، ورؤساء الكهنة، والهيكل، والمذبح[1].

ومن رموز ذلك اللعن، المتعلق بالعرب، أن اليهود رسموا صورة **مالك بن عجلان** في كنائسهم وبيعهم في صورة شيطان، فكانوا: «يلعنونه كلما دخلوها»[2].

السحر

اشتغل اليهود بالسحر، وبرعوا فيه، وإن تكن المصادر لا تذكر شيئاً عن هذا في الجاهلية، فأمرهم معروف فيه في الإسلام، **فلبيد بن الأعصم**، وكان ساحراً، قد علمت يهود أنه أعلمهم بالسحر؛ عمد إلى مشط، وما يمشط من الرأس من الشعر، فعقد فيه عَقداً، وتفل فيه تفلاً، وجعله في جف طلعة ذكر، ثم جعله تحت أرعوفة بئر ذَروان.

ومن الساحرات، بنات أعصم أخوات لبيد، وكن أسحر منه وأخبث[3].

واكتفاء ببيان تغلغل الفكر الوثني في التفكير اليهودي، ننقل هنا ما ذكره، شنودة عن ذلك في قوله:

«كان اليهود وملوكهم يصاهرون الوثنيين دون اعتبار

---

(١) انظر، ابن شموئيل، الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليودية، ص ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) الأغاني، ج ٢٢، ص ١٠٥.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء ج ٤ ص ١١٣٧.

أرعوفة البئر: حجر ناتىء فيه.

لاختلاف الدين، وعلى الرغم من أن شريعتهم اليهودية تعتبر ذلك جريمة شنيعة عقوبتها الموت. بل إن الكهنة اللاويين أنفسهم، الذين أناط بهم الله المحافظة على شريعته، كانوا يتخذون زوجات من بنات الوثنيين، ثم كانوا بعد ذلك يعبدون آلهتهن الوثنية، وقد درجوا كالوثنيين على استخدام السحر، والعرافة والعيافة، والتفاؤل ومن وسائل ذلك كله ادعاء النبوة واستطلاع الغيب وتفسير الأحلام والرؤى، وسؤال الجان والتوابع، وأهملوا كل أحكام الشريعة كل الاهمال، فامتنعوا عن الختان، ولم يحترموا الأيام المقدسة التي أمرهم الله باحترامها كيوم السبت، ولم يحتفلوا بالأعياد الدينية التي رسمها لهم... ولم يكن ذلك كله قاصراً على فئة منهم دون أخرى، وإنما اشتركوا فيه جميعاً، متمردين على ربهم، وعلى شريعتهم، ساجدين لآلهة خبيثة تلائم خبث طبيعتهم، متهافتين على ملذاتهم وشهواتهم، متهالكين على مطامعهم ومشتهياتهم، متذرعين بالخديعة والإثم»[1].

تُبَّع واليهود

قد يبدو القصص الدائر حول مرور تبع بالمدينة (يثرب) غير محقق تاريخياً. ولكنا ـ لتعذر الوثائق المعتمدة في هذا الجانب، نجد أنفسنا مضطرين إلى تقبل الموروث الشفوي والاستدلال به، ما دام ليس هناك ما يعارضه، فلعل

(١) اليهود، ص ٤٨٧.

الموروث الشفوي يظل وثيقة صحيحة بعد هذا.

وأول ما يلفت النظر في هذا الموضوع هو شخصية **تبع** نفسه. فعلى الرغم أن القرآن الكريم، يذكر **تبعاً** دون تحديد، فإن تكراره في القرآن الكريم يجعل منه شخصية واحدة. وتتفق الآيات التي ورد فيها ذكر اسمه على أنه كان مسلماً. قال تعالى:

﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم﴾ [الدخان: ٣٧] وانظر (ق: ١٤)

أما علاقة **تبع** باليهود، فقد بدأت عندما:

«**نزلت الأوس والخزرج ناحية المدينة وأعجبهم منزلهم فأقاموا بها وخالطوا قريظة والنضير ومن معهم في أموالهم وسكنوا بذلك زماناً. ثم إن ناساً من هُذيل انطلقوا إلى تُبّع** فقالوا: ما تجعل لنا وندلُّك على بيت مالٍ مملوءٍ لؤلؤاً، لا يكونِ أهله أكلة رأس ليست لهم شوكة؟ ففارقهم على ما قنعوا به فقالوا: بيت بمكّة. فأقبل معهم، وقد كان في نفسه أن يغزو قريظة، فبدأ بالمدينة قبل مكّة، وأقبل حتى نزل بين العقيق وبين بقيع الغرقد، ويقال نزل بالدّف: والدف من جُمدان، بين المدينة ومكّة، في طريق مجيء النبي ﷺ. ثم قال: ما أنا برائم حتى أقتل مقاتلتهم، وأقطع نخلهم. فلمّا بلغ قريظة والنضير ما يريد بهم **تُبّع**، كلموا الأوس والخزرج، وناشدوهم الحق والحلف. فقالت الخزرج والأوس: نحن معكم، والله لا نسلمكم، ولا نخذلكم،

ولكن ادخلوا ذراريّكم مع ذرارينا في الآطام، وادخلوا معهم ما قدرتم عليه من طعام، ونقاتل عنهم عند أبواب الآطام حتى نموت أو ينصرفوا عنكم. ففعلوا ذلك، فقاتلوهم قتالاً شديداً أياماً لا يصلون منهم إلى شيء، ولا يقدرون عليه، حتى شق ذلك على **تبع** وعلى أصحابه، وجاعوا، ورأوا أنّهم لا يستطيعون الإقامة بها. فبينما هم على ذلك، قال حَبْر من أحبار اليهود: والله لأنطلقن إلى هذا الرجل، فلأخبرنّهُ بشأن المدينة، وما نجد في كتابنا، وأنها محفوظة من كل عدو، فإن انتهى عنّا، وإلا استعنّا الله عليه، ودافعنا عن أنفسنا. فأتاه، فأخبره خبرها، وحدّثه أنّه يجد في كتابهم نبياً من أهل مكّة يدعى أحمد، ينزلها، ويتبعه ناس من سكانها، وأخبره بصنيعهم إلى قومه الذين معهم من الأوس والخزرج. فوقع قوله في نفسه، فأقام بعد ذلك أياماً لا يرى أمرهم يزداد إلا شدةً، ولا يزداد أصحابه إلاّ جهداً. فلمّا رأى ذلك، ارتحل منها عامداً إلى مكّة»[1].

وهنالك رواية أخرى، ربما تكون مناسبة، إذا وضعنا في الاعتبار الهيمنة العسكرية والسياسية لليمن على الجزيرة العربية، في أوج قوة اليمن. تقول الرواية:

«إن **تبعاً** لما رجع من غزوته تلك [الطويلة في الأرض]

(١) ديوان حسان، ج ١، حاشية ص ص ١٢ ـ ١٣.

مَرّ بالمدينة، فخلف فيها ابنه خالداً، أو ترك في كل أرض رابطة من الأجناد، ثم إن أهل المدينة قتلوا ابنه خالداً، فلما بلغ ذلك تبعاً، قال في ذلك شعراً... يقول فيه:

يَـا ذَا مُـعَـاهِـرَ مَـا أَرَاكَ تَـرُودُ | أَقَذىً بِعَيْنِكَ عَارضاً أَمْ عُودُ
مَنَع الرّقَادَ فَمَا أُغَمِّضُ سَاعَةً | نَـبَطٌ بِيَثْرِبَ آمِنُون قُعُودُ
نَبَطٌ أَشَابَ الرَّأسُ مِنِّي فِعْلُهُمْ | لاَ بُدَّ أَنَّ طَرِيقَهُمْ مَقْصُودُ
لاَ تَسْقِنِي بِيَدَيْكَ إِنْ لَمْ نَلْقَهَا | جُرْحاً كَانَ أَسَاسُهَا مَجْرُودُ
بِسُيوفِ حِمْيَرَ والأَقَاوِلَ وَسْطَهَا | وَالخَيْلُ تَبْدُو تَارَةً وَتَعُودُ
يَا ذَا الكُلاَعِ كَأَنَّنِي مَوْرُودُ | مِنْ أَمْرِ حِمْيَرَ وَالدَّوِيُّ عَتِيدُ
مَا بَالُ يَثْرِبَ غَلَّقَتْ أَبْوابَهَا | عَنِّي وَمِثْلِي لِلْعُدَاةِ صَيُودُ
مَا بَالُ يَثْرِبَ لاَ يُجِبْنِي رَبُّهَا | وَسُرَاةُ حِمْيَرَ بالسيُوفِ رُكُودُ
فَلأُوقِعَنَّ بِآلِ يَثْرِبَ وَقْعَةً | حَتَّى تَلاَقَى حِمْيَرٌ وَيهُودُ[1]

ويذكر تبع وصفه عندما بلغه خبر مقتل ابنه خالد، ثم ما فعل بهم فيقول:

أَرِقاً لِمَا فَعَلَ اليَهُودُ بِيَثْرِبِ | فَلَبِثْتُ في غُمْدَانَ كَالمُتَبَدِّلِ
وَحَلَفْتُ عَهْداً تَبْلُغَنَّ نَخِيلَهُمْ | زُبُرُ الحَدِيدِ عَشِيَّةً أَوْ مِنْ غَدِ
فَجَعَلْتُ عَرْصَةَ مَنْزِلي فِي رَوْضَةٍ | بَيْنَ العَقِيقِ إِلى بَقِيعِ الغَرْقَدِ[2]

(١) ابن شرية، أخبار عبيد بن شرية ص ٤٤٨.
ولاحظ الإقواء في البيت الرابع.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٣. العرصة: الساحة.

ويقول عما فعله بهم:

ثُمَّ مِنْ حِمْيَرَ أَتَرْتُ وَتَيْمِ ... ثُمَّ مِنْ يَثْرِبَ قَتَلْنَا اليَهُودَا

فَسَبَيْنَا نِسَاءَهُ وَبَنِيهِ ... وَالَّذِي قَدْ حَوَى فَأَمْسَى وَحِيدا[1]

وعلى الرغم من أنه قال، فيما نسب له:

غَضَباً لِمَا فَعَلَ اليَهُودُ بِخِنْدِفٍ ... يَرْمُونَ جُرْهُمَ فِي الوَرِيطِ الأَوْهَدِ[2]

أي إن اليهود هددوا مكّة (خندف: قريش)، فإنه يبدو أن حركة تبع حركة سياسية اقتصادية تأديبية لليهود، الذين ـ فيما يبدو ـ أرادوا الاستئثار بطرق التجارة في اليمن إلى الشام، مروراً بالحجاز؛ إذ يتبين أن تبع لاحق تجمعات اليهود في الجنوب والشمال، فبعد أن قضى على شوكتهم في يثرب، اتجه إلى خيبر، يقول:

فَطَحَنَّا يَهُودَ خَيْبَرَ حَتَّى ... أَصْبَحُوا مِثْلَ دارِسِ العُلْوَانِ[3]

وبعد أن أخضع اليهود عسكرياً واقتصادياً للسلطة المركزية في مأرب، كان لا بد أن يسلم الأمور في يثرب إلى من يتولون تصريف الأمور فيها بعده، وكان أن سلم مقاليد الأمر إلى مؤيديه من السكان، أي أبناء جلدته اليمانيين: الأوس

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٩. أترت: أدركت. وتري: ثأري.

(٢) ابن منبه، التيجان ص ١١٣. الوريط: الورطة، الهوة العميقة. الأوهد: الأسفل.

(٣) ابن شرية، أخبار عبيد بن شرية ص ٤٦٢. الدارس: البالي. العلوان: لعله يقصد الغرف العالية.

والخزرج، يقول:

ثم وجهت نحو يثرب خيلاً ... لنبيط بها يحلون بعدي

فصدمنا آطام يثرب بالخيـ ... ـل العناجيج بالمقاول تردي

وتركنا بها من الأوس والخز ... رج حسباً من آل بأس ومجد[1]

ولكن اليهود، عمدو ـ كدأبهم ـ إلى كسب ود العرب، تجنباً لحروب مستقبلية، وتأميناً لمخططاتهم القادمة، فاستمالوا تبع نفسه إلى جانبهم، وفي ذلك يقول:

حَتَّى أَتَانِي مِنْ قُرَيْظَةَ عَالِمٌ ... مِنْ خَيْرِ حَبْرٍ فِي اليَهُودِ مُسَوَّدِ[2]

وكان هذا التقارب بداية انتشار اليهودية في اليمن.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤٣.

(٢) ابن منبه، التيجان ص ١١٢. مسود: أي جُعل سيداً رئيساً. وانظر، ديوان حسان، ح ٢، ص ٢٣٦.

الحياة الاقتصادية لليهود

التجـارة

التجارة الخارجية

تجارة الجملة

يقول الخطراوي:

«التجارة الخارجية. . . أكثرها كان بيد اليهود، فيأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات، ويُقْدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش وغيرها من الأشياء التي تزخر بها بلاد الشام»[1].

وهكذا يتضح أن التجارة، أو الحياة في يثرب كانت بيد اليهود، يتحكمون فيها، ويوجهونها حسب متطلبات السوق، ووفقاً لتوجهاتهم، فإذا تحكموا في الاقتصاد، استطاعوا، بعد ذلك، تحريك السياسة، كيفما يشاؤون.

وإذا كانت يثرب على ذلك المستوى من التحكم الاقتصادي، فإن بقية المراكز التي استوطنوها أكثر مسايرة

---

(١) شعر الحرب، ص ٦٨.

لأهدافهم، مثل تيماء، ووادي القرى.. الخ.

يقول آربيري:

«استغلوا الطرق التجارية من الشمال والجنوب، فحمّلوا القوافل بالبضائع الهندية والصينية: Frankincense، والعطور، والتوابل، والحرير، كما عملوا بالزراعة لإمداد القوافل بما تحتاجه، ومارسوا الحرف اليدوية، فصنعوا Implements، والحلي للبدو الأثرياء ونسائهم، لا سيما الأسورة والعقود»[1].

الإنتاج الزراعي

أما عن الإنتاج الداخلي، فيشكل التمر مصدراً رئيساً في المنطقة، وقد كانت أعمال الزراعة مما يمارسه اليهود، وكانوا يمتلكون مزارع كبيرة فيها إلى جانب التحكم في مصادر المياه، يقول كعب الأشرف:

وَلَنَا بِئْرٌ رُوَاءٌ عَذْبَةٌ مَنْ يَرِدْهَا بِإِنَاءٍ يَغْتَرِفْ

وَنَخِيلٌ مِنْ تِلاَعٍ جَمَّةٍ تُخْرِجُ التَّمْرَ كَأَمْثَالِ الأَكُفّ[2]

وهذا يدل على أنهم استولوا على المناطق الأكثر جودة وخصوبة في يثرب، وهي أماكن تقع في النواحي العلوية من المدينة «تلاع».

---

(١) Arberry, Religion in the Middle East p. 123

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٢٣٩.

ويتضح مركز اليهود الاقتصادي في جعلهم سوق الجسر، أو سوق بني قينقاع: من أهم أسواق يثرب، وكان الناس يأتونها من كل مكان[1].

تجارة التجزئة

البضائع

من الطبيعي أن يسعى اليهود إلى ترويج بضائعهم في أسواق الجزيرة العربية من أقصاهاإلى أدناها، وأن يحرصوا على تصريفها في كل مكان، غير مكتفين بمقرّاتهم المعروفة لهم، بل ذهبوا حتى إلى منازل البدو ومضاربهم للاتجار؛ إما مقايضة، وإما نقداً. ولكنهم كانوا أيضاً لا يفرِّطون في أنفسهم، لعلمهم بمخاطر الطريق، فكانوا يستغلون العواطف العربية، ويكسبون ميولهم الإنسانية، لما عُرف عن العرب من الحفاظ على الجوار، وحماية المستجير بهم، غريباً كان، أو طالباً للأمن والسلامة؛ ولا يهم بعد ذلك ماذا سيجرّ هذا من عواقب وويلات، ما دام العربي هو الذي يسفك دمَه بيده، حتى لو كان طلب الاستجارة، يؤدي إلى قتل المستجير نفسه، لأن المال مضمونة عودته، على يد العرب، مهما بلغت التضحيات، أما القَوَد، فربما دُفِعَ دِيَةً، أو يكفي منه ذلك الاقتتال والحرب على يهودي مات مقتولاً.

ولدينا قصة توضح هذا كل توضيح، تقول:

---

(١) الخطراوي، شعر الحرب، ص ٦٧.

«كان اليهودي يتسوّق في أسواق تِهامة بماله، فغاظ ذلك حربا، فألّب عليه فتياناً من قريش، وقال: هذا العلج الذي يقطع إليكم ويخوض بلادكم بمال جمّ كثير من غير جوار ولا خيل؛ والله لو قتلتموه، وأخذتم ماله، ما خفتم تبعةً، ولا عرض لكم أحد يطلب بدمه، فشدّ عليه عامر بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وصخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، فقتلاه. فجعل عبد المطلب لا يعرف له قاتلاً، فلم يزل يبحث عن أمره، حتى علم خبره بعد، فأتى حرب بن أمية، فأنّبه بصنيعه، وطلبَ بدم جاره، فأجار حرب قاتليه، ولم يُسلمهما أخفافَهما. وطالبه عبد المطلب بهما، فتغالظا في القول، حتى دعاهما المحك واللجاج إلى المنافرة، فجعلا بينهما النجاشي، صاحب الحبشة، فأبى أن يدخل بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رِياح بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لُؤي، جدّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً، هو أطول منك قامة، وارسم منك وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صلة، وأطول منك مِذودا، وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصيت في العرب، جلد النذيرة، تحبك العشيرة، ولكنك نافرت منفرا. فنفر عبد المطلب، فغضِب حرب، وأغلظ لنفيل، وقال: من انتكاس الدهر أن جعلتك حكماً، وكانت العرب تتحاكم إليه، فقال نفيل:

أَوْلادُ شَيْبَةَ أَهْلُ المَجْدِ قَدْ عَلِمَتْ عُلْيَا مَعَدٍّ إِذَا مَا هُزهِزَ الوَرَعُ
وَشَيخُهُمْ خَيرُ شَيْخٍ لَسْتَ تَبْلُغُهُ أَنَّى وَلَيْسَ بِهِ سُخْفٌ وَلاَ لَمَعْ
يَا حَرْبُ مَا بَلَغَتْ مَسْعَاتُكُمْ هُبَعاً يَسْقِي الحَجِيجَ وَمَاذَا يَبْلُغُ الهُبَعُ
أَبُوكُمَا وَاحِدٌ وِالفَرْعُ بَيْنَكُمَا مِنْهُ العِشَاشُ وَمِنْهُ النَّاضِرُ البَتِعُ

.... فترك عبد المطلب بن حرب، ونادم عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، ولم يفارق حرباً حتى أخذ منه مئة ناقة، ودفعها إلى ابن عم اليهودي، وراجع ماله إلا شيئاً كان شعث منه، فغرمه من ماله، وقال الأرقم بن نضلة بن هاشم في منافرة عبد المطلب حرباً[1]:

وَقَبْلَكَ مَا أَرْدَى أُمَيَّةَ هَاشِمٌ فَأَوْرَدَهُ عَمْرٌو إِلَى شَرِّ مَوْرِدِ
أَيَا حَرْبُ قَدْ جَارَيْتَ غَيْرَ مُقَصِرِ شَآكَ إِلَى الغَايَاتِ طَلاّعُ أَنْجُدِ

وهكذا تحقق لليهود التحكم في عصب الحياة الاقتصادية ألا وهي التجارة والإنتاج.

تجارة الخمور

ولكن ذلك كله لا يعادل شيئاً إزاء تجارة الخمور، التي أضاف إليها اليهود قيمة دينية؛ حيث خصصوا لها صلوات خاصة، فباركوها، وأشعروا شاربيها بأنها خمر مقدسة،

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ص ٧٣ ـ ٧٤.

معتقة، لا عيب فيها، مما جعل شهرة خمرتهم هي المسيطرة على الأسواق.

يقول المرقش الأصغر:

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ رِيحُهَا ... تُعَلَّى عَلَى النَّاجُودِ طَوْراً وَتُقْدَحُ

ثَوتْ فِي سِبَاءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً ... يُطَانُ عليها قَرْمَدٌ وَتُرَوَّحُ

سَبَاهَا رِجَالٌ مِنْ يَهُودَ تَوَاعَدُوا ... بِجَيْلانَ يُدْنِيهَا إِلَى السُّوقِ مُرْبِحُ(1)

فهذه االخمر مرّت عليها عشرون سنة بتمامها، وهو إيحاء بأن الهدف ليس هو الكسب المادي السريع، وإنما هو القيمة الذاتية للخمر، وإضافة إلى ذلك، فهي خمر حُفظت في أماكن خاصة، اختص بالقيام عليها اليهود، وهذا يعني أن المشتري سيتوجه أساساً إلى طلب بضاعتهم هم، لأنه واثق من حقيقتها وجودتها، وهو حريص عليها لندرتها.

ويقول الأعشى:

فَبِتُّ كَأَنِّي شَارِبٌ بَعْدَ هَجْعَةٍ ... سُخَامِيَّةً حَمْرَاءَ تُحْسَبُ عَنْدَمَا

إِذَا بُزِلَتْ مِنْ دَنِّهَا فَاحَ رِيحُهَا ... وَقَدْ أُخْرِجَتْ مِنْ أَسْوَدِ الجَوْفِ أَدْهَمَا

لَهَا حَارِسٌ مَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا ... إِذَا ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا

---

(1) التبريزي، شرح المفضليات، ج ٥ ص ص ٨٨٦ ـ ٨٨٧.
قهوة: تُقهي عن الطعام، أي تقِل طَعْمَ من أدمن عليها: تعلى: ترفع. الناجود: المصفاة. تقدح: تغرف. ثوت: أقامت في سباء محصورة. الدن: وعاء الخمر. حجة: سنة. يطان: يُطيَّن. القرمد: الآجر. تروح: تُخرج إلى الريح، وتُبرّد.

بِبَابِلَ لَمْ تُعْصَرْ فَجَاءَتْ سَلاَفَةً   تُخالِطِ قِنْدِيداً وَمِسْكاً مُخَتَّما[1]

إن هذه الخمر خمر معتقة قديمة، حُفظت في مكان حريز يساعد على تعتيقها، والذي يقوم على صيانتها، والعناية بها، رجل يهودي وَرِع، يباركها ويدعو لها. ثم إن لها تأثيراً سحرياً، لأنها تُجلب من بابل (موطن السحر)، فالقائمون عليها برعوا في إجادتها بعد خبرة طويلة، وإخلاص منقطع النظير.

إن هذه الخمر سخامية، سَلِسة مستساغة، بعد أن مضى

---

(١) ديوان الأعشى، ص ٢٩٣.

السخامية: الخمر السلسلة اللينة الهمز في الحلق. العندم: شجر أحمر. بزل الخمر: ثقب إناءها بالمبزل. أسود الجوف: هو الدن، لأنه مطلي بالقار (الزفت). أدهم: أسود. ذبحت: أي ثقب إناؤها، فسالت منه، كما يسيل دم الذبيح. زمزم العلوج: تراطنوا على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لساناً ولا شفة، ولكنه صوت يديرونه في خياشيمهم فيفهم بعضهم عن بعض. صلى عليها: أثنى عليها وباركها.

بابل: مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد بثلاثة وتسعين كيلومتراً، وقد بلغت عظمتها في عهد بختنصر سنة ٦٠٤ ق .م، ثم خربها دارا، ثم فتحها الإسكندر المقدوني، ومات فيها سنة ٣٠٤ ق .م. والعرب ينسبون إليها الخمر والسحر. السلافة: ما تحلب، وسال قبل العصر، وهو أجود الخمر، القند: (بفتح القاف) والقنديد (بكسرها)، عسل قصب السكر، والقنديد كذلك العنبر والكافور. المسك: طيب يتخذ من دم الغزال. ختم الإناء: سده بالطين ونحوه.

عليها زمن وهي في وعائها، فتهذبت من الشوائب، وتخلصت من المرارة، إنها حمراء صافية، لونها كلون العندم، وللخُمرة قداسة معروفة في الوثنية، على عكس الخمر الموصوفة في الجنة: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ [الصافات: ٤٦]، ولذلك ارتبطت بالذَّبح، على غرار الأضحية الوثنية، (القربان). إن هذه الخمر مقدسة، كأنها الدمية في المحراب، التي يتكرر ذكرها في الشعر الجاهلي، وهي محفوظة في غلاف من طين مطلي من الداخل والخارج بالقار، حتى تتعتق ويتعمق تخمرها، فإذا ما خُلع عنها سربالها، أي غطاؤها، فاحت رائحتها.

وتبلغ قداسة هذه الخمر في أنها ـ وهي كالدمية في المحراب ـ لها قائم عليها في مكان طاهر مقدس «بيت»، وللبيت معنى ديني، إنه مكان عبادة، ولهذا القائم عليها صفات دينية، إنه يصلي، أي يباركها بدعواته، ويزمزم: أي يتمتم بأدعية وضراعات، وهي حالة اليهودي، وكان اليهود منذ الجلب البابلي على يد نبوخذنصر كثيرين في بابل.

وتأكيد الخمر البابلية اليهودية، واضح في قول أبي جفنة القرشي، في الخمر:

مِمّا تخَيَّرَتِ التَّجارُ بِبَابِلٍ ... أَوْ مَا تُعَتِّقُه اليَهُودُ بِسُوَرَا[1]

---

(١) ياقوت معجم البلدان، «سُورا»، وهو موضع ببابل.

إن ذلك اللون الأحمر، اللون المقدس، والمرتبط بالدم المقدس، وذلك اليهودي المتفرغ لعبادة الخمر، والدعاء لها، وسط طقوس دينية خاصة بها، نجدها بارزة للعيان في قول الأعشى أيضاً:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّهَا وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُتُمْ
وَقَابَلَهَا الرِّيحَ مِن دَنِّهَا وَصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[1]

فهي حمراء «**صهباء**»، واليهودي يؤدي لها طقوس العبادة المتمثلة في الطواف حول معبودته الخمر، كما يطوف حول الوثن، أي الدمية في المحراب، مع ملاحظة أن هذه عبادة حقيقية؛ فاليهودي يُخرج دنان الخمر، وهي مختومة، أي كالدمية المزينة المهيأة في المحراب، ويتجه بها تجاه الريح ليستنشق قوتها، ثم يصلي له صلاة البركة والنماء، في عبارات تنم عن الرغبة في استنزال النجاح والتوفيق من الآلهة.

ولهذا احتكروا تجارة الخمر في بابل، إضافة إلى ما لبابل من سمعة أسطورية قديمة، حتى عَلِقت بها أوصاف خاصة بها، ومميزة لها: «**لم تعصر ـ سلافة ـ تخالط قنديدا ومسكا مختما**»، أي: إنها خمر جاءت من قطرات الثمار المصنعة منها (أي العنب كما يبدو) وقد قصر اليهود توزيعها

---

(١) ديوان الأعشى، ص ٣٥.

عليهم وحدهم، فتجار الجملة، يهود في بابل، وتجار التجزئة يهود في الأسواق والحانات.

أما علامة الجودة فيها، فهي ذلك الشمع الأحمر، أي الختم الأحمر، الذي يعلو عنقها: «**مسكاً مختّما**»، «**عليها خُتُم**»، والظاهر أن اليهود كانوا يكتبون على ذلك الختم بالطين كتابات بالعبرانية، يقول أبو نواس:

كَتَبَ اليَهُودُ عَلَى خَوَاتِمِ دَنِّهَا ... يَا دَنُّ أَنْتَ عَلَى الزَّمَانِ حَبِيسُ[1]

ويتأكد لنا معنى الصلاة، أي: منح الخمر صفة روحية، من قول أيمن بن خريم:

وَصَهْبَاءَ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطُفْ بِهَا ... حَنِيفٌ ولم تَنْغُزْ بِهَا سَاعَةً قِدْرُ

وَلَمْ يَشْهَدِ القَسُّ المُهَيْمُ نارها ... طُروقاً ولا صلى على طَبْخِها حَبْرُ[2]

والحبر، هو أحد أحبار اليهود، أي أحد علمائهم، وفي هذا دليل على أن السلطة الدينية كانت وراء مباركة الخمر وقدسيتها عند اليهود.

أما كيف يثبت اليهود جودة خمورهم، وتميزها عن غيرها، لا سيما النصارى، فهذا واضح من قول أبي نواس، وهو يشخص الحالة النفسية للخمّار اليهودي:

وفتيانِ صِدْقٍ قد صَرَفْتُ مَطيَّهُمْ ... إلى بيْتِ خمّارٍ نَزَلْنا بهِ ظُهْرَا

---

(١) ديوان أبي نواس، ص ٢٠٥.

(٢) الأغاني، ج ١٧، ص ١٦٧.

فلمّا حكَى الزُّنّارُ أنْ ليس مسلماً ... ظَنَنّا به خيراً فظنّ بنَا شَرّا
فقلنا على دينِ المسيحِ بن مرْيم ... فأعْرَضَ مُزْوَرّاً وقال لنا هُجرَا
ولكنْ يهوديٌّ يُحِبُّكَ ظاهراً ... ويُضمِرُ في المكْنونِ منه لكَ الخَتْرَا
فقلنا له ما الاسمُ قال سَمَوْألٌ ... على أنّني أُكْنَى بعَمْرٍو ولا عَمْرَا
وما شرّفَتْني كُنْيَةٌ عَربيّةٌ ... ولا أكْسَبَتْني لا سناءً ولا فَخْرَا
ولكنّها خَفَّتْ وقَلَّتْ حروفُها ... وليسَتْ كأخرَى إنّما خُلِقتْ وَقْرا
فقلنا لهُ عُجْباً بظرْفِ لِسانِهِ ... أجدْتَ أبا عمرٍو فجَوِّدْ لنا الخمرا
فأدْبَرَ كالْمُزْوَرِّ يَقْسِمُ طرْفَهُ ... لأرْجُلِنا شطْراً وأوْجُهِنا شَطْرَا
وقال لَعَمْري لوْ أحطْتُمْ بأمرِنا ... لَلُمْنَاكُمُ لكنْ سَنُوسِعُكُمْ عذرَا
فجاءَ بها زيتيّةً ذهبيّةً ... . (١)

الحانات Bars

لم يكتف اليهود بالترويج لخمورهم والدعاية لها، وتفضيلها على سواها، خاصة من منافسيهم النصارى، بل فتحوا الحانات للراغبين في الشرب، فقد كان لبني قريظة مثلاً:

«حانة تُعرف باسمهم، وكان خمارها في جوار سَلام بن

---

(١) ديوان أبي نواس، ص ٢٤٤. المزور: المنحرف. الهجر: الكلام القبيح. الوقر: الحمل الثقيل.

وفي موضع آخر قال، ص ٨٦، في الخمر: «يهودية الأنساب».

مِشكم»[1].

وتعددت الحانات في بلاد العرب.

«وكان عرب البادية وصعاليكها يهبطون إلى حانات اليهود هذه فيروون أنفسهم من خمرها»[2].

ويقدم لنا الأعشى صورة دقيقة لإحدى حانات اليهود، فيقول:

فَبِتُّ كَأَنِّي شَارِبٌ بَعْدَ هَجْعَةٍ ... سُخَامِيَّة حَمْرَاءَ تُحْسَبُ عِنْدَمَا

ثم يقول:

يَطُوفُ بِهَا سَاقٍ عَلَيْنَا مُتَوَّمٌ ... خَفِيفٌ ذَفِيفٌ مَا يَزَالُ مُفَدَّمَا

بِكَأْسٍ وَإِبْرِيقٍ كَأَنَّ شَرَابَهُ ... إِذَا صُبَّ فِي الْمِصْحَاةِ خَالَطَ بَقَّمَا

لَنَا جُلَّسَانٌ عِنْدَهَا وَبَنفْسَجٌ ... وَسِيسِنْبَرٌ وَالمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَمَا

وَآسٌ وَخَيرِيٌّ وَمَرْوٌ وَسَوْسَنٌ ... إِذَا كَانَ هِنزَمْنٌ وَرُحْتُ مُخَشَّمَا

وَشَاهَسْفَرِمْ وَاليَاسِمِينُ وَنَرْجِسٌ ... يُصَبِّحُنَا فِي كُلِّ دَجْنٍ تَغَيَّمَا

وَمُسْتُقُ سِينِينٍ وَوَنٌّ وَبَرْبَطٌ ... يُجَاوِبُهُ صَنْجٌ إِذَا مَا تَرَنَّمَا

وَفِتْيَانُ صِدْقٍ لاَ ضَغَائِنَ بَيْنَهُمْ ... وَقَدْ جَعَلُونِي فَيْسَحَاهَا مُكَرَّمَا[3]

---

(١) سعيد، تطور ص ٩٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ديوان الأعشى، ص ٢٩٣ـ ٢٩٤.

متوم: وضع في أذنيه تومتين، والتومة (بضم التاء) اللؤلؤة. ذفيف: مسرع. مفدم: شد على أنفه وفمه خرقة بيضاء. المصحاة: قدح من

إن هذه الحانة، كأية حانة يمتلكها اليهود، معدة إعداداً تاماً لاستقبال طالبي اللذة والهوى؛ فالساقي اختير من أحسن السقاة هيئة، وأجملهم طلعة، وألطفهم ظرفاً؛ وطريقة السقاية طريقة مهذبة، جذّابة. ثم إن الحانة تمتلىء بالأزهار والورود الذكية الرائحة، وهنا ينجذب الشارب إلى حالة استرخاء وهدوء وتأمل، يستسلم فيها لتوالي الكؤوس وقرقعاتها، وتبلغ قمة النشوة والارتياح، عندما تعزف آلاف الطرب المختلفة، تدغدغ أحلام السكارى وأمانيهم.

لقد أحسن اليهود تنظيم أنفسهم، وتنسيق تجارتهم، وتمكنوا من الوصول إلى قلوب طالبي اللذة وعشاق اللهو؛ فقد اختاروا السقاة من الغلمان، أو القيان الصغيرات السن،

فضة يشرب به. البقم: شجر ساقه أحمر، يصبغ به. الجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش: أنواع من الورود والرياحين، وكلها أسماء فارسية معربة. نمنمه: زخرفه، ونقهه، وزينه. الآس والخيري والمر والسوسن: كلها أنواع من الرياحين. الهنزمن: عيد من أعياد النصارى. مخشم: سكران شديد السكر، خشَّمه الشراب، تثور رائحته في خيشومه، فأسكرته.

الشاهفرم والياسمين والنرجس: أنواع من الرياحين. يوم دجن: غائم كثير المطر، والدجن أن يسد الغيم أقطار السماء. المستقة: آلة يضرب عليها. الون: ضرب من آلات الطرب الوترية. البربط هو المزهر أو العود. الصنج: دوائر من النحاس، تثبت في أطراف الأصابع، ويصفق بها على نغمات موسيقية.

وهم في توزيعهم الخمر يلجأون إلى طريقة بارعة من أجل شرب المزيد منها، فالساقي يدور بالخمر في إبريق نظيف، فيصب منه في كأس، ويبدو أنهما من الذهب، والشارب في يده قدح واسع من فضة، يعيد منظر الخمر فيه للشارب صورة الدم المقدس.

إن حانة الخمر تفتح أبوابها بعد العشاء، وتستمر على تلك الحالة حتى ما بعد الشروق: (**يصبحنا**..).

أما رواد هذه الحانة، فهم من الشباب الأغرار: **فتيان صدق لا ضغائن بينهم**، ينفقون كيفما يشاؤون، وقدوتهم في ذلك، ذلك الشيخ الذي يشاركهم السكر والعربدة، يتوسطهم، فاسحين لهم مجلسهم، وهو مخمور لا يكاد يبين: **مخشماً**.

فالحانة حوت على الموسيقى، ووسائل الترفيه، والترويح عن النفس، والخدمة الراقية، والملاحظ أن روّاد هذه الحانات أغلبهم من الفتيان، وأقلهم الشيوخ، وكلا النوعين يغدق في البذل والعطاء «**فتيان صدق**»، «**مكرما**». وهنا يبتزّ اليهود كلّ مدّخرات الرواد، لا سيما البدو، وكل تحصيلهم النقدي العام.

ولا يتوقف هدف الحانات على تفريغ جيوب المتعطشين إلى سقيا الخمر، بل يشمل التقرب بها إلى الرؤساء وكبار القوم؛ فهذا أبو سفيان يبتاع له ابن مشكم، كل ما في حانوت الخمّار جاره، فيسقيه ومن معه من

قريش، بعد انصرافهم من غزوة السُّوَيق، ونزولهم عليه، يقول أبو سفيان حين انصرف منه:

سَقَانِي ورَوَّانِي كُمَيْتاً مُدَامَةً ... عَلَى عَجَلٍ مِنِّي سَلاَمُ بْنُ مِشْكَم

تَخَيَّرْتُهُ أَهْلَ المَدِينَةِ وَاحِداً ... لِحِلْفٍ فَلَمْ أَغْبَنْ وَلَمْ أَتَنَدَّمِ[1]

فعن طريق التكرم بالخمر استطاع ابن مشكم أن يتقرب إلى أبي سفيان، وأن يحظى عنده بمنزلة كبرى.

وإضافة إلى هذا، فإن الحانة تحقق هدفاً خطيراً، وهي استغلال الرُّوَاد وإيقاعهم في مأزق الإفلاس، أو توريطهم في مزالق لا ينقذون أنفسهم منها، فهم: «**فتيان صدق**»، أي أغرار، قليلو التجارب في الحياة، يقتدون بذلك الرجل المدمن على الشراب، فيبذلون دون حساب وتوقع.

وهذا الوضع هو الوضع نفسه على مسار تاريخ اليهود في البلاد العربية. يقول حنين في العصر العباسي:

أَنَا حُنَيْنٍ ومنزلي النَّجَفُ ... وَمَا نَدِيمَي إِلاَّ الفَتى القَصِفُ[2]

أَقْرَعُ بِالكَأْسِ ثَغْرَ بَاطِيَةٍ ... مُتْرَعَةٍ تَارَةً وَأَغْتَرِفُ

مِنْ قَهْوَةٍ بَاكَرَ التُّجَارُ بِها ... بَيْتَ يَهُودٍ قَرَارُهَا الخَرَقُ

ويمكن أن نستدل على مدى تغلغل اليهود في الحياة

---

(١) سعيد، تطور، ص ٩٢.

(٢) الأغاني، ج ٢ ص ٣٠١. القصف: اللهي اللاعب. الباطية: إناء الخمر.

العامة والخاصة للعرب، ليس في البادية، أو فيما يتعلق برجال البادية؛ وإنما في الحاضرة، وفي عواصم الملك والسياسة، من قصيدة عدي بن زيد القافية، التي نقل فيها صورة تفصيلية عن تلك الأحوال، يقول:

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ في وَضَحِ الصُّبـ ... ـحِ يَقُولُونَ لي ألا تَسْتَفِيقُ[1]

وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بنَةَ عَبْدِ الـ ... ـلَّهِ وَالقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ[2]

لَسْتُ أَدْرِي وقَدْ بَدَأْتُمْ بِصَرْمي ... أَعَدُوٌّ يَلُومُني أَمْ صَدِيقُ[3]

أَطْيَبُ الطِّيبِ طِيبُ أُمِّ عَلِيٍّ ... مِسكُ فَأْرٍ وَعَنْبَرٍ مَفْتُوقُ[4]

خَلَطَتْهُ بآخَرٍ وَبَبَانٍ ... فَهوَ أَحْوَى عَلى اليَدَيْنِ شَرِيقُ[5]

زانَها وَارِدُ الغَدائِرِ جَثْلٌ ... وأَسِيلٌ عَلَى الجَبِينِ عَبيقُ[6]

وثَنَايا كَالأُقْحُوَانِ عِذابٌ ... لاَ قِصَارٌ كُسْرٌ وَلا هُنَّ رُوقُ[7]

---

(١) ديوان عدي، ص ص ٧٦ ـ ٧٩ وضح: انكشف وبان، والوضح: الضوء وبياض الصبح.

(٢) الوثاق: حبل تشد به الإبل لئلا تند.

(٣) صرمي: قطيعتي.

(٤) فتق العنبر والمسك: استخرج رائحته.

(٥) الأحوى: الأسود.

(٦) الغدائر: جمع غديرة، وهو المضفور من شعر النساء. شعر جثل: كثير لين.

(٧) الثنايا: أسنان مقدم الفم، الأقحوان: نبات له زهر أبيض وأوراق مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان. روق: جمع روقاء وأوراق، والروق: طول في الثنايا العليا على السفلى، وهو من معايب

مُـشْـرِقَـاتٌ تَـخَـالُـهُـنَّ إذا مَـا حَانَ مِنْ غَائِرِ النُّجُوم خُفُوقُ
بَاكَرَتْهُنَّ قَرْقَفٌ كَدَمِ الجَوْ فِ تُريكَ القَذَى كُمَيتٌ رَحِيقُ[1]
صانَها التَّاجِرُ اليَهُودِيُّ حَوْلَيْـ نِ فأذْكَى مِنْ نَشْرِها التَّعْتِيقُ
ثُمَّ فُضَّ الخِتَامُ عَنْ حَاجِبِ الدَّ نِّ وحَانَتْ مِنَ الْيَهُودِيِّ سُوقُ
فاستَباها أَشَمُّ خِرْقٌ كَرِيمٌ أَرْيَحِيٌّ غَمَنْدَرٌ غِرْنيقُ[2]
ثُمَّ نَادُوا عَلَى الصَّبُوحِ فجاءَتْ قَيْنَةٌ في يَمِينِها إبْرِيقُ[3]
قَدَّمَتْه على سُلافٍ كَعَيْنِ الدِّ يكِ صَفَّى سُلافَها الرَّاوُوقُ[4]
مُزَّةً قَبلَ مَزْجِهَا فإذا مَا مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُها مَنْ يَذُوقُ[5]

الأسنان.

(١) قرقف: الخمرة الباردة. الكميت: من أسماء الخمرة، فيها حمرة وسواد.

(٢) سبى الخمر واستباها: حملها من بلد إلى بلد. خرق: فلان خرق: يتخرق في السخاء، أي يتسع فيه. الأريحي: الواسع الخلق النشيط إلى المعروف، غمندر: كذا في الأصل، وربما تكون مضجفة من (غميدر) وهي صفة للغلام الناعم، غرنيق: طائر مائي، ويشبه به الشاب الأبيض الجميل.

(٣) الإبريق: إناء، جمعه أباريق، فارسي معرب.

(٤) سلافة كل شيء: أوله، وسلاف الخمر وسلافتها، ما سال وتحلب منها قبل العصر، وهو أفضل الخمر. الراووق: المصفاة، أو إناء يروق فيه الشراب أي يصفى.

(٥) المزة: الخمرة اللذيذة الطعم.

وطَـفَـا فَـوْقَـهـا فَـقَـاقَـيـعُ كَـالْـ ياقُوتِ حُمْرٌ يَزِينُها التَّصْفيقُ

قَتَلَـتْهُ بِـسَـيْـبِ أَبْـيضَ صَـافٍ طَيِّبٍ زانَ مَزْجَهُ التَّصْفيقُ[1]

فَـوْقَ عَـلْـيـاءَ مَـا يُـرامُ ذُراهـا يَلْغَبُ النَّسْرُ فَوْقَها وَالأَنُوقُ[2]

ثُـمَّ كَـانَ الـمِـزَاجُ مَـاءَ سَـحَـابٍ لا صِرىً آجِنٌ ولا مَطْرُوقُ[3]

كَانَ فِي مِسْحِها يَكْنُفُها الصَّخْـ ـرُ إذا. . . . . . فـيـهِ أَنِـيـقُ

أَسْـفَـلٌ حُـفَّ بـالـعِـضَـاهِ وأَعْـلا هُ صَفَا يُلْغِبُ الوُعُولَ دَلُوقُ[4]

مَـسْـقَـطُ الـظِّلِّ مِـنْ تَكَـنُّفِهُ الـحِـقْـ ـفَ وَتَنْفي قَـذاهُ ريحٌ خَريقُ[5]

---

(١) السيب: المطر الجاري أو العطاء. زان: زين، صفق الشراب: حوله من إناء إلى إناء ليصفو.

(٢) يلغب: يتعب. الأنوق: النسر.

(٣) الصرى: الماء يطول مكثه. أجن الماء: تغير لونه وطعمه فهو آجن. المطروق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر.

(٤) العضاه: شجر معروف. يلغب: يتعب.

(٥) تكنفه: أحاط به من كل جانب. الحقف: نقا يموج ويدق. نفى الريح: ما تبقى من التراب الذي تأتي في أصول الحيطان. خريق: أي شديدة كأنها تخرق الأشياء.

تحليـــل المشـاهــد
في أبيات عدي

نوع الرواد

لقد استغرق عدي في شرب الخمر سكران طيلة ليله، حتى كاد يغيب عن وعيه؛ واستمر على هذه الحالة حتى اليوم التالي.

نوع النساء

المتوددات، الآسرات.

عطورهن

المسك والعنبر ذوا الروائح الذكية.

وهن يتفنن في مزجه، وخلطه، ثم إظهاره في منطقة سريعة الجاذبية، أي اليدين والخدين.

وهن نساء نواعم، منعَّمات، شابات، رائعات الحسن والجمال، لهن شعور فاحمة سوداء، طويلة وكثيفة، ومعطرة بالعطور ذاتها. أما أسنانهن، فمفلجة، صغيرة كالأقحوان في صفاء بياضها.

لقد استغلهن التاجر اليهودي بائعات هوى في حانته، وسيطر عليهن، إذ جعلهن أنفسهن لا يستغنين عن الخمر، فهن يباكرن الخمرة، كما زبائنهن يباكرنها، وبينما زبائنهن يبدأون في المساء، يبدأن هن في السكر صباحاً.

ولم يقتصر هذا على رجل سياسي **كعدي بن زيد**، بل توصلوا أيضاً إلى نساء البلاط، من أمراء الحيرة، ونساء وجهائها، فالسياسيون ـ كما يمثلهم **عدي** ـ مستغرقون في الخمر، لا يفيقون منها، مستمرون عليها صباح مساء.

أما النساء، فهن اللاتي لديهن المال والثراء، ويبذلن من غير حساب على بذخهن وملذاتهن، والتاجر اليهودي يحرص على إيصال خمره إلى بيوتهن، فهن كما الرجال، لا يُفِقن، إنهن يسهرن الليل، وعندما يأتي الصباح، يتناولن الخمر، مندفعات غير منقطعات، ولم يقتصر ذلك على متوسطي العمر من نساء الأعيان، وإنما طال ذلك فتياتهن، والمقبلات على الحياة منهن.

وفي هذه القصيدة نرى الحانة التي أقامها اليهود في الحيرة ففي الحانة قيان أجنبيات، يسقين روّادها، ويقدمن الخمرة بطريقة مغرية، وما زلن يلححن على هؤلاء، ليزدادوا سكراً.

إن رواد هذه الحانة هم على شاكلة الأعشى ورفاقه:

فاستباها أشم خرق كريم   أريحي غمندر غرنيق

ونجد وصفاً طريفاً لإناء الخمر الذي يسقي منه اليهود الشاربين، أو يستعملونه، يقول الراعي في ناقته:

وَرَأْسٍ كَإِبْرِيقِ اليَهُودِيِّ أَشْرَفَتْ   له حُبُكٌ أَجْيَادُهَا كَالْمَراجِلِ[1]

أي إنه ضخم كبير.

توزيع الخمر

فإذا كان متعذراً على تجار الخمر اليهود إقامة الحانات، فإنهم تكفلوا بإيصال الخمر إلى منازل العرب ومضاربهم في البادية، مثلما كان **عمر بن حُنَّى**، **وجُفَينة بن أبي حَمَل** تاجرين يحملان الخمر إلى بني **سهم بن مرة** من بني صرمة من قضاعة.

وتُحقق تجارة الخمر في غير الحانات (التي تشمل أيضاً حوانيت الخمر في مناطق الاستقرار)، الأهداف التي يحرص اليهود على تحقيقها في المجتمعات التي تطؤها أقدامهم، لا سيما البلاد العربية، كما لاحظناها في تجارة التجزئة (البضائع).

ولدينا قصة طبق الأصل للقصة السابقة، ووفق النسيج نفسه، خاصة أن المثل المشهور:

«عند جهينة الخبر اليقين»

يتضمنها؛ تقول القصة:

---

(١) ديوان الراعي، ص ٢١٠.

«كَانَ بَطْنٌ من قضاعة يقال لهم بنو **سَلاَمان بن سَعْد بن زَيْد بن الحَافِ بن قُضاعة** حُلَفَاءَ لبني صِرْمة من بني مُرَّة بن عَوْف، وكانوا نُزُولاً فيهم، وكانَ بَطْنٌ من جُهَيْنَةَ آخرُ يقال لهم: بنو حُمَيس، وهم الحُرَقَة، حُلفاءَ لبني سَهْم بن مُرَّة، وكانوا نزولاً فيهم، وكان في بني صِرْمَة يهوديّ تاجر من أهل تَيْماءَ يُقال له: جُفَيْنَة؛ وكان في بني سَهْم بن مُرّة يهوديّ آخر، يقال له غُصَين بن حُنَّى من أهل وَادِي القُرَى، وكانا تاجِرَيْن في الخَمْر، وكان أَهلُ بيتٍ من بني **عبد الله بن غطفان**، يقال لهم: بنو جَوْشَن، جِيراناً لبني صِرْمَة، وكانوا يُتشاءمُ بهم، فَفُقِد رجُلٌ منهم يُقال له: حُصَيْن، وكانت أُختُه تسألُ عنه الناس، فجلس ذات يوم أَخٌ لذلك المفقود في بيت اليهودي الخمّار يَبْتَاع خَمْراً، فقال، ومرّت به أُخْتُ المفقود:

تُسَائِلُ عن حُصَينٍ كُلَّ رَكبٍ ... وعند جُفَيْنَة الخَبَرُ اليَقِين

يعني اليهوديّ الذي في بني صِرْمة، فقال: نَشَدْتُك بدينك، هل تَعْلَم مِنْ أخِي عِلماً؟ قال: لا؛ ثم قال:

لعَمْرَكَ ما ضلَّت ضَلالَ ابنِ جَوْشَنٍ ... حَصَاةٌ بليلٍ أُلقِيَتْ وَسْطَ جَنْدَلِ

فتركه حين سَمِع البيت، وأتاه مُمْسِياً، فقتله؛ وقال:

طعَنْتُ وقد كان الظلامُ يُجِنُّني ... غُصَيْنَ بن حُنَّى في جِوَارِ بني سَهْمِ

فأَتى الحُصين بن الحُمام المريّ، فقيل: إن جارَك قد قُتل. قال: من قَتَله؟ قال: ابن جَوْشن: جارُ بني صِرْمة.

فقال لهم الحُصين: إنَّ لهم جاراً يَهُودِيّاً عندنا، فأتوه، فقتَلوه، فعمدت بنو صِرْمَة إلى ثلاثة نَفَرٍ من بني حُمَيْس بن

عامر، فقَتَلُوهُم. فقال حُصين: فاقْتُلُوا منهم مِثْلَهم من السَّلاَمانِيْن؛ فَقَتلُوا منهم ثلاثة.

ثم قال لهم حُصَين: قَتَلْتُم يهودِيّاً جاراً لنا، فقَتَلْنَا به جارَكم»[1].

الأمانات

وثِق العرب في اليهود ثقة كبيرة، فكانوا يودعون أموالهم لديهم أمانةً، وفيما كان اليهود يستثمرون هذه الأموال في الأعمال الربوية، والقروض المجحفة، التي يتورط فيها الناس، كان العرب يرون في إيداعها لديهم حرزاً وحصوناً.

يقول **عبد الله بن رواحة**، راداً على قيس بن الخطيم، في قراءة باجودة ووليد قصاب:

وَكُنْتُمْ تَدَّعُونَ يَهُودَ مَالاً فَالآنَ وَجَدْتُمُ فِيهَا يَهُودَا[2]

ومعنى الشطر الثاني: الآن عرفتم اليهود على حقيقتهم، وتكشفت لكم أمورهم، فهم أهل غدر وخيانة، وخسة ونذالة.

ويبقى الاختلاف في قراءة الشطر الأول، فعلى حسب قراءة جامعَي شعر ابن رواحة:

---

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١، ص ص ١١٠٠ ـ ١١٠١.
(٢) ديوان عبد الله بن رواحة، (باجودة)، ص١١٨، ديوان عبد الله بن رواحة (قصاب)، ص ١١٩.

إنكم كنتم تحسبون اليهود ذخراً وكنزاً تحتمون به وتلتجئون إليه. ولو عدنا إلى علاقة الأوس باليهود، لما وجدنا هذا الشعور بالنُّصرَة والاعتزاز باليهود، بل كان اليهود في هذا التاريخِ الذي يتحدث عنه ابن رواحة، عالة على الأوس، وعبئاً ثقيلاً ينوء بكاهلهم، وكان يمكن أن يكون العكس هو الصحيح، لو فهمنا كلام ابن رواحة ذلك الفهم.

والقراءة التي نراها صائبة هي:

وكنتم تُودِعون يهود مالا

أي: إنكم كنتم تأتمنون اليهود في أموالكم، وتثقون بهم؛ فالآن...

ويؤيد هذه القراءة أن ابن رواحة يقول بعد ذلك البيت:

وَقَدْ رَدُّوا الغَنَائِمَ فِي طَرِيفٍ   وَنَحَّامٍ وَرَهْطِ أَبِي يَزِيدا[1]

أي: إنكم عندما ائتمنتم اليهود أموالكم، ووثقتم فيهم،

---

(١) ديوان ابن رواحة (باجودة) ص ٩٢.
ومع وضوح أسماء الأعلام في البيت، فإن باجودة ينقل من مخطوطة في شرح «نحام» ص ٩٢: النحام: شديد الصوت. وقيل البخيل: إذا سُئل، كثر سعاله كما قال طرفة:
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ   كقبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ
أما وليد قصاب، فيكتفي بترجمة: طريف، ويقول ص ١١٩.
«هم بنو طريف من الخزرج بن ساعدة بن الخزرج».
في حين أن باجودة، الذي سبقه إلى التحقيق، ذكرهم، وذكر أنهم:
«بنو طريف بن الخزرج من ساعدة بن كعب بن الخزرج».

خانوكم، وغدروا بكم، فهم أعادوا إلينا ما أودعتموه عندهم من غنائم أخذتموها منا، وذلك مقابل ديات دفعوها ـ درءاً لأنفسهم من غضبنا، فتركوكم وشأنكم ـ عن قتلى منا: من بني طريف، ومن بني نحام، ومن بني أبي يزيد.

ويدلنا على أن الرواية هي:

«**تُودِعون**»، أن عبد الله بن رواحة شاعر تعبيري، وليس شاعراً وصفياً تصويرياً، كما هو حال لبيد أو زهير، أو الشماخ، مثلاً، ورواية «**تدَّعون**»، فيها معنى مجازي، لا يتلائم مع الطريقة التعبيرية في شعره، لا سيما أن القصيدة من شعره الجاهلي قبل إسلامه، والملائم جداً لها هو: «**تُودِعون**».

الصياغة

وهي من الأعمال التجارية التي تخصص بها اليهود، حتى كادت تنسب إليهم. وقد عرفهم العرب صاغة أيضاً، فهذا النابغة الذبياني يهجو النعمان بن المنذر، فيقول فيه:

قَبَحَ اللَّهُ ثُمَّ ثَنَّى بِلَعْنٍ   وَارِثَ الصَّائِغِ الجَبَانَ الجَهُولاَ

وأم النعمان بن المنذر كانت سلمى بنت عطية الصائغ، اليهودي، من أهل فدك[1].

الحدادة

وهي مهنة صنو للصياغة، فكلتاهما يتطلبان أدوات

---

(١) النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص ٦٨.

النفخ، واستعمال المطرقة والسندان. ويبدو أن طبقة العبيد في المجتمع اليهودي هي التي تفردت بمزاولة هذه الأعمال، وهم المعروفون بـ «**القيون**»، ونستدل من هذا على أن «**القيون**» الواردة في قول الحُصَين بن الحُمام، تعني أولئك اليهود، يقول:

صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قُيُونُهَا[1]

امتلاك البساتين والحقول وموارد المياه

سعياً وراء تثبيت أقدامهم في المناطق التي ينزلونها، وحرصاً منهم على مكانتهم الاجتماعية، وحفظاً لأنفسهم من تسلط الأعراب، ومزاحمة سكان الأرض الأصليين، عهد اليهود إلى الانتشار في الجزيرة العربية والتركز في مناطق الخصب والازدهار فيها. ففي البحرين كان اليهود مقيمين، وكانوا، كما هو حالهم في الحجاز، طبقة أغنياء، وطبقة عاملين؛ والطبقتان كلتاهما تتضافران على شد أيادي بعضها بعضاً، والانغلاق على ذاتها، صوناً لمصالحها. وحيث إنه لم تكن هناك حكومات مركزية، أو لا مركزية في شمال الحجاز، فقد كانوا هم سادة المدن التي استولوا عليها، مثل: خيبر، وتيماء، وفدك، وكانوا أسياداً أيضاً في يثرب.

---

(١) الأنباري، شرح المفضليات، ص١٠٨.

وذلك لعلاقة نسبة صناعة الدروع إلى داؤد عليه السلام.

أما في منطقة، كبلاد البحرين، حيث السلطة الاسمية لآل الجارود، ومن ثم المناذرة، بينما السلطة الفعلية للفرس، فإنهم كانوا متعاونين مع الفرس، لا سيما أن علاقاتهم التاريخية، تسجل مآثر للفرس عليهم، بعد الجلب البابلي، وقيام الملِك الفارسي بإعادتهم إلى فلسطين[1].

ونتيجة لهذه العلاقات الفردية الودية بين الفرس واليهود، وجد اليهود في منطقة البحرين مكاناً يَدُرّ بالمال الوفير والخير العميم عليهم، فامتلكوا عَصَب الحياة الاقتصادية فيها، وهما: الزراعة، والملاحة؛ وبهذا تحقق لهم التحكم في تجارتها بشكل عام. يدل على هذا أن **ابن يامن**، وكان ذا شهرة واسعة، قد أصبح المُمَوِّل التجاري، والمتحكم في اقتصاديات السوق، فقد امتلك هذا اليهودي مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة، ذات المردود المادي الكبير، وامتلأت هذه الأراضي بالنخيل. وكانت في موقع اقتصادي مهم، فهي لا تبعد عن المياه الجارية إلا مسافة محدودة، فتُسقى بالماء الغزير، كما كانت في قلب العاصمة الإدارية لمنطقة البحرين: أي هجر، بل هي قريبة جداً من المركز الإداري فيها: أي حصن «المشقَّر»، وتمشياً مع الطريقة المألوفة في التحصين والحماية، كان يحرس هذه الأراضي أعوان وحراس مدججون بالسلاح الفَتّاك: أي

---

(١) سوسة، العرب واليهود ص ٧٠٦.

السيوف، فكان منيعاً عن الأعداد: «**حتى أقر**». أما العمال فيه، فقد كانوا من **بني جيلان**: أي من الفرس، أو هم الفرس الموالون للسلطة الفارسية، مباشرة. وهذا يعني أن الدولة، أو السلطة المركزية، منحت الحماية الرسمية لهذه الأراضي، التي ربما كانت إقطاعيات حصل عليها اليهود من الملِك الفارسي بطرقهم الخاصة، مقابل تقديم خدمات معينة، وأداء خَراج معين، مما يؤدي إلى استغلال الأرض استغلالاً فاحشاً، وحرمان السكان من الاستفادة من هذه المساحات، أو استصلاح سواها، لأن ذلك سيؤدي إلى المنافسة، والحد من نفوذ اليهود، الذين أصبحوا يحتكرون هذا الدخل القومي الرئيس. يقول **امرؤ القيس**، مبيناً هذا كله، في تشبيه ظعائن محبوبته[(١)]:

فَشَبَّهْتُهُمْ في الآلِ لَمَّا تَكَمَّشوا حدائقَ دَوْمٍ أَو سَفيناً مُقَيَّرا[(٢)]

أَو المُكْرَعاتِ مِنْ نَخيلِ ابْنِ يامِنٍ دُوَيْنَ الصَّفا اللائي يَلِينَ المشقَّرا[(٣)]

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ص ٥٧ـ ٥٨.

(٢) تكمَّشوا: أسرعوا في السير بحدائق الدَّوْم، لِما في هوادجهم من الألوان المختلفة، والدَّوْم يطول باليَمن، ويرتفع في السماء كالنخيل؛ وشبَّههَم أيضاً بالسفين لمسيرهم في السراب كسير السفين في الماء.

(٣) المكرَعات: النخيل المغروسات في الماء؛ وهي أنعم النخل وأطولُها؛ أراد اختلافَ الألوان في الهوادج مع علوّها وارتفاعها. الصفا والمشقَّر: قصران بناحية اليمامة.

سَوامِقَ جَبَّارٍ أَثِيثٍ فُروعُهُ وعالَيْنَ قِنْواناً مِنْ البُسْرِ أَحْمرا[1]

حَمَتْه بَنُو الرَّبْداءِ من آل يامِنٍ بأَسْيافِهِمْ حتَّى أُقِرَّ وأُوقِرَا[2]

وأَرْضَى بني الرَّبْداءَ واْعْتَمَّ زَهْوُهُ وأَكمامُه حتى إذا ما تَهَصَّرَا[3]

أَطافَتْ به جَيلانُ عند قِطاعِه تَرَدَّدُ فيه العَيْنُ حتَّى تَحَيَّرَا[4]

---

(١) سوامق: من وصف النخل؛ وهي المرتفعات الطوال. الجبّار: الذي قد فات اليدَ لطوله. الأثيث: الغزير. عالين قنوانا: أي قد أدرك هذا النخل، وأينَع، فتمايلتْ عروقُه، وعالتْها فروعه؛ وإنما قصد إلى تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من اختلاف الألوان. القنوان: العذوق. البسر: ما احمر من التمر قبل أن ينضج.

(٢) حمته بنو الرَّبْداء: أي منعتْه من أن يُوصَلَ إليه حتى أُقِرَّ على حاله وكَملَ حمْلُه، فكانَ بذلك أبهى لمنظره، وأشدَّ للعَجَب منه؛ وكأن هذا النخلَ من أنفسَ النخل؛ فأهلُه يحمونه بسيوفهم ويحرسونه ضنًّا به، ورغبةً فيه. أوقر: حمل.

(٣) أرضى بني الرَّبْداء: أي هذا النخلَ، لما رأوا منه من كثرة حَمْله وتنعّمه. «اعتمّ»: كَمل وتمّ. الزهو: الأحمر والأصفر من البُسْر. الأكمام: أقماع البُسْر، وإذا تمت قوىَ البُسْر واشتد؛ وأصل الأكمام أغلفة الطلع عند خروجه من قلب النخلة. تهصَّر: تَثنىّ وتدلّى.

(٤) أطافت به جيلان: هؤلاء قوم اتخذهم كسرى عمالاً بجانب البحرين ليَصرِموا له النخل. تردد فيه العين: يريد عين الماء؛ أي يُتعاهد بالسقي: ليكمل إدراكه. حتى تحيرا: أي يجري هذا الماء بين هذا النخل، حتى ينتهي إلى آخره، فلا يجد منفذاً، فيستوى ويتحيّر؛ ويحتمل أن يريد بالعيْن عين النظر؛ لحسن هذا النخل والإعجاب به تتَردَّد فيه العيْن حتى يكلّ نظرُها وتتحير.

ويكرر كُثَيِّر مثل هذا الوصف، فيقول:

حُزِيَتْ لي بِحَزْمِ فَيْدَةَ تُحْدَى كَالْيَهُودِيِّ من نَطَاةِ الرُّقالِ[1]

وحديث **كثير** هذا حديث في الإسلام، الأمر الذي يعني أن بعض اليهود ظل في خيبر، ولم يُجْلَ منها في عهد **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، وهنا وصف لنخيل خيبر التي يملكها اليهود؛ فهي مكممة مكللة، كالنخل الذي وصفه **امرؤ القيس**، وهي نخيل طوال بواسق كذلك.

أعمال النخيل

الائتبار (إصلاح النخل)

اشتغل اليهود بكافة الحرف، وعملوا في كل مجال يدر عليهم كسباً ومالاً وفيراً. فكان الفلاحون في وادي القرى منهم، وكذلك كانوا فلاحين إلى جانب العرب في يثرب. وقد أشار **مطير بن الأشيم الأسدي**، إلى أن اليهود كانوا يصلحون النخيل، ويقومون على العناية بتنظيفه، يقول **مطير في تشبيه فرسه**[2]:

وَسَامِعَتَانِ كَسُلاَّتَيْ عَسِيبَةِ مُؤْتَبِرٍ مِنْ يَهُودَا

---

(١) ديوان كثير ص ٣٩٦. وانظر اللسان، «نطا». حزيت: رفعت، وحزاها الآل: رفعها. الرقال: النخل الطوال. النطاة: اسم أُطُم خيبر.

(٢) ابن قتيبة، المعاني الكبير ج ١ ص ١١٤.

وفي تشبيه أذني الفرس بالعسيبة ملاحظة للدقة المتناهية في تجريد العسيبة مما عليها من غصون وبقايا بَلَح، فتبدو حادة دقيقة، أي تكريس للوقت والجهد لإنجاز عمل مُتقَن. والهدف من هذا، هو أن يستفيد المُنتِج منه، فيبيعه في السوق، بعائد نقدي، أي إنه استغل المادة الزراعية للتجارة، حتى في بقايا النخل، وما اجتُزَّ منه، فيبدو صالحاً يستفاد منه لأمر ما. وهذه المهنة ليست قاصرة على أحد اليهود، بل يشترك فيها يهود كثيرون: «**من يهودا**».

الحراثة

يقول أبو البلاد الطهوي، في وصفها، وهو يتحدث عن امرأته:

لَهَا سَاعِدَا غُولٍ وَرِجْلا نَعَامَةٍ ... وَرَأْسٍ كَمِسْحَاةِ اليَهُودِيِّ أَزْعَرَا(١)

أي إن رأسها مفلطح، وهي تبين أيضاً صفة جسمية مميزة من صفات اليهود.

امتلاك السفن

إن أعمال البحر، كأعمال الزراعة، في منطقة البحرين، كل واحد منهما صنو للآخر، ومكمل له. فإذا وجد هناك من يستطيع الجمع بينهما، والاستفادة من عائداتهما، فإنه يستطيع أن يصبح سيد الموقف في شؤون البلاد، وذا قدرة

---

(١) الجاحظ، الحيوان ج ٦ ص ٢٤١.

مادية غير محدودة على تسيير الحركة الاقتصادية فيها. وكما كان **ابن يامن** ـ وهو أحد اليهود الأثرياء ـ مسيطرا كل السيطرة على الإنتاج الزراعي، كان هو أيضاً[1] ـ ضمن أعداد من اليهود غيره ـ المدبِّر لحركة النقل والملاحة فيها، فقد امتلك عدداً من السفن الضخمة، التي تنقل البضائع من جهة إلى أخرى، وكانت دائبة الحركة، لا تنقطع. يقول طرفة:

كَأَنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدْوَةً ... خَلايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ[2]

وسنجد أنهم ملاحون في دجلة، أي إن كبراءهم كانوا يمتلكون السفن التي تناسب الأنهار هناك، ويحصرون العمل فيها لأبناء جلدتهم ودينهم.

الملاحون

إذا نظرنا في الخارطة الاقتصادية للجزيرة العربية قبل الإسلام، وجدنا اليهود يشكلون حلقة متماسكة تطوق الجزيرة

---

(١) انظر عن ابن يامن خاصة، وتجارة اليهود عامة، محمود، خيبر ص ٢٤ ـ ٢٥.
والشكر للأستاذ المكي العلمي (الجزائر: قسطنطينة) الذي تفضل بإرسال هذه النسخة لي.

(٢) ديوان طرفة ص ٧. حدوج: جمع حدج، وهو مركب النساء. المالكية: نسبة إلى بني مالك بن سعد قومه. خلايا: جمع خلية، وهي السفينة العظيمة. النواصف: جمع نواصف، وهي الرحبة الواسعة في الوادي.

الإسلام، وجدنا اليهود يشكلون حلقة متماسكة تطوق الجزيرة العربية كلها، بحيث يمكن أن نقول: إن اقتصاديات بلاد العرب كادت تكون قبل الإسلام حِكْراً على اليهود، وأنهم كانوا يعملون في الخفاء، للاستئثار بالمال وحدهم، ثم إخضاع شعوب البلاد لمخططاتهم وسياساتهم السرية، ليصبحوا هم أصحاب رؤوس الأموال. فلم يعد الأمر قاصراً على الطبقة المستفيدة، أي طبقة الإقطاع والتجار، بل كانوا أيضاً يشكلون جزءاً مهماً من طبقة الأيدي العاملة، وهكذا رأيناهم زرّاعاً في وادي القرى، وبلاد البحرين. كما كانوا أيضاً ملاحين في هذه البلاد، في خدمة سفن **ابن يامن**، المفترض أنه ـ وفقاً لنزوع الأقليات، والعنصر اليهودي خاصة، إلى شد أزر بعضها بعضاً ـ كان يستخدم في ملاحة سفنه اليهود؛ فهو لم يستخدم الأيدي العاملة الوطنية في الحراسة والزراعة كما رأينا. أما في غير منطقة البحرين، فهم كانوا ملاحين كذلك. يقول عبيد في وصف الظعائن:

كَعَوْمِ السَّفِينِ في غَوَارِبِ لُجَّهِ ... تُكَفِّئُهَا في مَاءِ دَجْلَةَ رِيحُ

عَلَيْهِنَّ صُهْبٌ مِنْ يَهُودَ جُنُوحٌ ... جَوَانِبُهَا تَغْشَى المَتَالِفَ أَشْرَقَتْ[(١)]

فهؤلاء **يهود**، أطلق عليهم العرب اسم «**نبط**»، وهنا إشارة إلى صفة من صفاتهم، وهي: «**صهب**». وعلى الرغم

(١) ديوان عبيد ص ٣٠. لجة: الماء الكثير. تكفئها: تميلها. عليهن: على الجوانب.

من أن الأنباط كانوا في غالبيتهم نصارى، فإن إطلاق مسمى النبط على اليهود عند العرب، يعني أنه كان منهم يهود، مارسوا الملاحة، ليس في منطقة الخليج فحسب، بل في بلاد الرافدين أيضاً، ولا شك أنهم كانوا كذلك على سواحل البحر الأحمر وبحر العرب.

وكما اشتغل اليهود في دجلة ملاحين، على ظهر سفن ملك لليهود، فلا بد أنهم اشتغلوا أيضاً ملاحين مهرة في سفن يهود الخليج. يقول **طرفة** في سفن **ابن يامن**:

. . . . **يَجُورُ بِهَا المَلاَّحُ طَوْراً وَيَهْتَدِي**

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلَ بِالْيَدِ[1]

فالملاح، ويقصد الملاحين على ظهر سفن **ابن يامن**، هو أحد اليهود، وكان منهم ربابنة سفن، ذوو خبرة بالملاحة والإبحار، لا سيما في الخليج الذي وصف **طرفة** حالة السفن فيه بأنها تضطرب وتتقادفها الأمواج: «**يجور بها الملاح طوراً ويهتدي**». إن هذا الملاح، أحد الملاحين، وهو أيضاً ربّان السفينة وقائدها الموجه لها.

---

(١) ديوان طرفة ص ٧ـ ٨. حباب: الموج. الحيزوم: الصدر. المفايل: الذي يلعب لعبة الفيال أو المفايلة؛ وهي لعبة لصبيان الأعراب، وهي تراب يكومونه، ثم يخبئون فيه خبيئاً، ثم يشق المفايل تلك الكومة بيده، فيقسمها قسمين، ثم يقول: في أي الجانبين خبأت؟ فإن أجاب المسؤول بالصواب، ظفر، وإلا قمر، وغُلب.

الأبنية

صادفنا في أثناء الحديث عن القلاع والحصون، أن اليهود استولوا على كثير مما كان قائماً قبلهم، واستغلوه لحمايتهم. ولكنهم بلا شك ـ شاركوا في العمران والحضارة في المناطق التي استوطنوها، فأقاموا المعابد والقصور، وأبدعوا في هندستها وإنشائها. يتضح لنا هذا كالتالي:

المعابد (الكنائس)

عندما نعود إلى قول **حسانٍ** في اليهودي الذي يتلو الزُّبر، نجده يسمى بِيَع اليهود:

«الصوامع».

وفي قول **عمرو بن معد يكرب، نجد تسميتها**:

«الكنائسا».

وكذا جاء في قول **قيس ابن الخطيم**:

نمتها اليهود إلى قبة دوين السماء بمحرابها

فتلك ليست صومعة واحدة، وإنما صوامع متعددة، أي جمع كثرة، وهذه ليست قبة واحدة، بل قِباب كثيرة ذات محاريب، **«إلى قبة دوين السماء بمحرابها»**.

وفكرة الصومعة، وفكرة **«قبة دوين السماء»**، لا تحتملان المساحة الواسعة، وإنما تحتملان أن تكونا محدودتي المساحة. إنهما فكرة إقامة معبد في مكان شاهق رفيع، لا تبدو منه إلا قبته، وفي داخله محراب.

وينقلنا هذا الوصف إلى وصف الأديرة والخلوات التي كان الرهبان يقيمونها لأنفسهم في وسط الجزيرة العربية، أي: إنه بناء لم يبلغ منه الرقي المعماري، وهندسة البناء، ما بلغته المناطق المتحضرة في غيرها، ولكنه بناء يتوافق مع التفكير اليهودي خاصة، وهو الانعزال والتحصين. والملاحظ أن الصومعة، أو القبة ذات المحراب، أو البيعة، أو كنيسة اليهود، تتكون من طابقين:

الطابق الأول:

يتكون من غرفة المحراب، يصعد إليها بسلم.

الطابق الثاني:

الساحة.

ويبدو أن اليهود كانوا يطلون معابدهم باللون الأبيض، كما جاء في قول **تُبع**:

بيض الكنائس

وكان يربط بين الطابقين مرقاة مدرجة. وكان المعبد كله عبارة عن بناء مربع[1].

وقد مر بنا أنهم كانوا يزينون معابدهم بالصور والتماثيل.

(١) جواد علي، المفصل ج ٦ ص ٥٢٩.

القصور

استحوذت فكرة التحصين والارتفاع على عقلية اليهود، فتخيروا من الحصون ما هو صعب الوصول إليه، وشيدوا البِيع بين قمم الجبال والشعاب البعيدة. كما بنوا القصور وفق الطراز نفسه. وقياساً على التفكير ذاته، لم تكن قصورهم في مستوى السطح، بل كانت بعيدة في أماكن عالية. يقول **امرؤ القيس**:

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي حِينَ بَانُوا بِجَسْرَةٍ كَبُنْيَانِ اليَهُودِيِّ خَيْفَقِ[1]

فهذه الناقة التي يعتليها ناقة طويلة: **«جسرة»**، أو هي التي تجسر على الأهوال، وهي: **«أمون»**، **أي موثقة الخَلْق، يؤمن عِثارها. وهكذا كان قصر اليهودي، أو بناؤه الذي يسكنه، يقع في مكان عال، مسوراً بأسورة عالية، ومحصناً تحصيناً شديداً، يستطيع أن يقاوم الحصار والهجوم، ويصمد أمام الأعداء المغيرين. والناقة: «خيفق»**، وقالوا في شرحها: الطويلة، وإنما تعني أن البنيان تخفق الريح فيه، لعلوه وشموخه.

ونسمع **الأعشى** يتحدث عن قصر الأبلق الذي يُنسب بنيانه إلى **سليمان بن داؤد**، كما نجد النابغة يتحدث عن بنيان **سليمان** أيضاً مدينة تدمر[2].

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٦٩.

(٢) ديوان الأعشى ص ٢١٧. ديوان النابغة ص ص ٢٠ ـ ٢١.

يهود الحجاز

لن نسترسل مع ادعاءاتنا التي يتناقلها كتابنا المحدثون وغيرهم عن اليهود، ذلك أننا إنما نعالج التاريخ، ونستنطق الوقائع:

إن مسألة البغاء مسألة معترف بها في الدراسات الاجتماعية في المجتمعات الوثنية، وتكريس البغاء للمعابد شريعة كل الديانات الوثنية، ولم يكن العرب الوثنيون أنفسهم بمعزل عن هذا المبدأ، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ [النور: ٣٣]

العرب أقروا هذه الظاهرة الاجتماعية، فكانت تجارة **عبد الله بن جُدعان، الشريف القرشي المعروف، قائمة على تجارة البغاء**(١).

وفي أشعار العرب اعتراف صريح بهذا، يقول أحدهم:

فَجَرَ البَغِيُّ بحدج ربـ ... ـتها إذا ما الناس شَلُّوا(٢)

أي: إن المرأة الشريفة تصطحب معها إماء وقيانا، كان من مهمات بعضهن الاتجار بالجسد، فما إن يضيق مورد

---

(١) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ص ٥٠٤ـ ٥١١.

(٢) اللسان، «حدج» فجر: ارتكب المعاصي والفجور. ولعل الرواية: «فخر»، أو «فرح»..

عيش في مكان، حتى تنتقل السيدة ببغاياها إلى مكان آخر، فيه طالبو لذة آخرون.

وهذا التعبير هو ما ذكره **الطرماح** في قوله:

كَفَاخِرَةٍ لِرَبَّتِهَا بِحدج[1] . . . .

ولم تكن الدعارة وقفاً على الوثنين، فاليهود الذين انقلبوا سريعاً إلى الوثنية، متمسكون بمظاهر دينية يهودية، هي في حقيقتها جزء من الوثنية، كانوا يتبعون الطريقة نفسها. يقول **غوستان لوبون**:

«الزنى بالأخت والبنت والأم، واللواط، والمساحقة، ومواقعة البهائم. . . من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين ذلك الشعب. لقد خلطوا الملاذ بالطقوس الدينية، فعُدت ضروب البغاء تكريماً لعشتاروت، وعُدّ السكر نوعاً من العبادة[2].

ويقول شنودة:

«وقد أشارت التوراة إلى اليهوديات اللاتي كن يمارسن الدعارة ليلاً في هياكل الآلهة الوثنية ولا سيما تموز وعشتاروت، وفي النهار يشتغلن بتطريز الخيام لتلك الهياكل. كما أشارت إلى المأبونين الفاسقين من الرجال الذين كانوا يمارسون العلاقات الشاذة الداعرة في الهياكل مع الذكور. وكانت هؤلاء العاهرات

---

(١) ديوان الطرماح ص ٣٣٠.

(٢) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٥١.

كما كان أولئك المأبونون يقيمون في بيوت مجاورة للهياكل، ومنها هيكل أورشليم ذاته. إذ جاء في سفر الملوك أن «يوشيا (ملك يهوذا)... هدم بيوت المأبونين التي كانت عند بيت الرب، حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية». وكانت عاهرات معابد الإله تموز مع سائر اليهوديات اللاتي يعبدنه، يصنعن في موعد معين من كل عام مناحة يبكين فيها على موت تموز، وكان ذلك أيضاً يحدث في هيكل أورشليم ذاته، إذ ورد في سفر حزقيال «فجاء بي (الله) إلى مدخل بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز»[1].

وتمشياً مع توضيح الحقائق وعدم الانجراف مع العواطف نقول: إن هذا الكلام صادق في نقل واقع اليهود بعد أن خانوا كلمة الرب، فأنزل عليهم عقابه. يقول سفر **اللاويين** في مخاطبة موسى:

«إن لم تستمعوا لي، ولم تعملوا كل هذه الوصايا، وإن رفضتم فرائضي، وكرهت أنفسكم أحكامي، فما عملتم من وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذه بكم.

أسلط عليكم رعباً، وسلاً، وحمى، تفني العينين، وتتلف النفس، وتزرعون باطلاً زرعكم، فيأكله أعداؤكم، واجعل وجهي ضدكم، فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتسلط

---

(١) اليهود ص ص ٥١٣.

عليكم مبغضوكم، وتهربهون، وليس من يطردكم»[1].

كما يقول:

إذا كنتم بذلك لا تسمعون لي، بل سلكتم معي بالخلاف ساخطاً... فتأكلون لحم بنيكم، ولحم بناتكم تأكلون»[2].

فهذا هو قضاء الله الذي حل باليهود، لأنهم خالفوا شريعة موسى. أما شريعة موسى نفسها، فصريحة في شدتها، وصرامتها، وتشددها:

«لا تُدَنِّس ابنتك بتعريضها للزنى، لئلا تزني الأرض وتمتلىء الأرض رذيلة»[3].

«إذا زنى رجل مع امرأة... يقتل الزاني والزانية. قد فعلا فاحشة»[4].

يهود حضرموت والحيرة

وتمشياً مع تناول الحقائق فقط، فإن رذيلة البغاء، التي ذكرها العرب عن اليهود، لم نعرفها في مجتمعاتهم في شمال

---

(١) التوراة ص ٢٠٢. وانظر بقية العواقب ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٩.

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٠. وانظر ص ١٩٠ يذكر الزنى والقتل في موفى الأقارب. وواضح أن الزنى فاحشة رذيلة حتى مع الآخرين.

الحجاز، ولعل ذلك يعود إلى تمسك هؤلاء باليهودية الشرعية، وإن كانت محرفة ومبدلة، ولأنهم كانوا محافظين محافظة شديدة على نقاء انتسابهم إلى اللاويين، سدنة اليهود وكهانهم، إن هذه الفاحشة لم تعرف حتى بين من نزل بينهم ممن تهوّد مثلهم.

أما الذي نعرفه عنهم في هذا، فينحصر في المناطق البعيدة عن مراكز التدين الحقيقية. فهي لم توجد بين اليهود في قلب اليمن (صنعاء ـ مأرب)، بل وجدت في الأطراف، أي في حضرموت، كما وجدت في شمال شرق الجزيرة العربية، أي الحيرة، ليس لأن هذه مراكز تجارية فحسب، بل لأن هؤلاء ليسوا يهوداً صليبة، وإنما هم إما عرب تهودوا (كبعض كندة)، وإما نبط تهودوا.

ولقد قيل في المثل:

أزنى من هر

وهي إحدى المتمنيات موت الرسول ﷺ من كندة وحضرموت وهي ابنة يامن، اليهودية[1].

---

(١) ابن حبيب، المحبر ص ١٨٨.

لاحظ الاسم: يامن، أي يامين، وعلاقته بابن يامن في هَجَر.

الكتابة في الجاهلية

ردد الشعراء الجاهليون تعبيرات نمطية، وصفوا بها الأطلال، وخصوا بذكرها اليهود، وإن كانوا أعطوا كل لون حقه من الاختصاص والتحديد، فجاؤوا به على النحو التالي:

التشبيه العام بالأطلال

ذكر الشعراء الجاهليون الأطلال في مقدمات كثير من قصائدهم، لا سيما الطويلة منها، فشبهوها بتشبيهات متعددة، تحمل معاني الاندراس والاندثار والبِلى. وكانت الكتابات القديمة بعض تلك التشبيهات، ويتأخر ذكر اليهود حتى قبيل الإسلام وأوله، وعندما ذكروهم، ربطوهم بمناطقهم التي عرفوا فيها، فمن هذه قول الأسود بن يعفر:

سَطُورُ يَهُودِيَّيْنِ فِي مُهْرَقَيْهِمَا مُجِيدَيْنِ مِنْ تَيْمَاءَ أَوْ أَهْلِ مَدْيَنِ[1]

فالكتابة في مهرق، والمهرق: كلمة فارسية تعني (مهركرد)، والمنطقة: مدينتا تيماء ومدين، والكتابة ذاتها قديمة، ولكنها احتفظت بآثارها، لأن كاتبيها من اليهود

(١) أبو عبيدة، النقائض، ج ١، ص ١٠٦.

الأحبار الذين بلغوا من الجودة والإتقان في الخط مبلغاً رفيعاً.

ويردد الشماخ ذكر تيماء، فيقول:

كَمَا خَطَّ عِبْرَانِيَّةً بِيَمِينِهِ بِتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثُمَّ عَرَّضَ أَسْطُرَا[1]

ويذكر الأصمعي أن معناه: «**كتبها كتاباً غير مبين**».

والمعنى الواضح أن الكتابة قديمة، وأنه لم يستوضح سطورها، ونلاحظ تكرار جمع السطر: «**سطور (أسطر)**» وهو يدل على تقدم فن الكتابة القائمة عندهم على حسن التنسيق والتفنن في تشكيلها: «**عرَّض**»، غير أن هذه الكتابة تكاد تمَّحي، لتقادم الزمان عليها.

والملاحظة الأهم في هذين البيتين، هي حصر المنطقة الثقافية في شمال الحجاز، وتحديداً في المنطقة المتاخمة لفلسطين، فكأن هناك استثناء لبقية المنطقة، مثل: وادي القرى وخيبر ويثرب.

وتأتي صورة الكتابة البالية واضحة في قول ابن الزبعرى[2]:

حَيِّ الدِّيَارَ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا طُولُ الْبِلى وَتَرَاوُحُ الأَحْقَابِ

فَكَأَنَّما كَتَبَ اليَهُودُ رُسُومَها إلاَّ الْكَنِيفَ وَمَعْقِدَ الأَطْنَابِ

---

(١) الزبيدي، التاج، «عرض».

(٢) شعر ابن الزبعرى، ص ٢٩.

الذكر العام

وُجـد داود عـلـيـه الـسـلام فـي حـدود (٩٧١ق .م)، واقتـرن اسمـه بـالـزبـور، قـال تعـالـى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

فالـزبور: كتاب بغير اللغة العربية، يقول خُزَر بن لوذان، مشيراً إلى التأثير الديني الآتي من الزبور.

لاَ يَـمْـنَـعَـنَّـكَ مِـنْ بِـغـا ... ءِ الـخَـيْـرِ تَـعْـقـادُ الـتـمـائِـمْ
وَلَـقَـدْ غَـدَوْتُ وَكُـنـتُ لاَ ... أَغْـدُو عَـلَـى وَاقٍ وَحَـاتِـم
فَـإِذَا الأَشَـائِـمُ كَـالأَيَـا ... مِـنِ وَالأَيَـامِـنِ كَـالأَشَـائِـم
وَكَـذَاكَ لاَ خَـيْـرٌ وَلاَ ... شَـرٌّ عَـلَـى أَحَـدٍ بِـدَائِـمْ
قَـدْ خُـطَّ ذلـك فِـي الـزَّبُـو ... رِ الأَوَّلِـيَّـاتِ الـقَـدَائِـمْ[1]

ثم ها نحن نجدهم يشبهون الزبور بالأطلال، كما فعلوا فيما مضى من تشبيهات، يقول لبيد:

أَوْ مَذْهَبٌ جَدد على ألواحِهِنَّ ... الناطِقُ المَبْروزُ وَالمَخْتُومُ[2]

ولعل الرواية الصحيحة لهذا البيت «مزبور» وليس

---

(١) اللسان، «حتم».

الواقي: الصُّرَد. الحاتم: الغراب.

(٢) شرح ديوان لبيد، ص ١١٩.

«مبروز»، كما ذهب إلى ذلك أبو جاتم في البيت المنسوب إلى لبيد أيضاً:

كَمَا لاَحَ عُنْوَانُ مَزْبُورَةٍ يَلُوحُ مَعَ الكَفِّ عُنْوَانُهَا[1]

ويلاحظ أن الشعراء عندما تحدثوا عن الزبور بشكل عام، ولعلهم بذلك يحصرونه في الزبور المتداول بين أيدي يهود غرب وشمال الحجاز، وصفوه بأنه كتاب قديم، يتناقله اليهود فيما بينهم، فإذا ما امّحت آياته وأسطاره، عادوا عليه يجددون حروفه وكلماته، وهو على حالته، دون كتابته من جديد، يقول لبيد:

وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا[2]

الكتابة اليهودية الحميرية

عندما تحدث أولئك الشعراء عن **الزبور**، جعلوا ذكره عاماً، وهناك من نسبه إلى اليمن، حيث كانت اليهودية قديمة فيها، منذ عهد سليمان، إذ بقي بعض أهل اليمن متهودين، وإن تأثروا كثيراً بالوثنية، ثم تجدد عهدهم باليهودية بعد ترحيلهم إلى بابل في عهد نبوخذنصر سنة (٥٣٩ق .م)، فهرب منه بعضهم واحتمى باليمن، وعلى هذا قال تميم بن أبي بن مقبل:

---

(١) الزبيدي، التاج، «برز».

(٢) شرح ديوان لبيد، ص٢٩٩.

أَوْ زَبْرِ حِمْيَرَ بَيْنَهَا أَحْبَارُهَا   بِالحِمْيَرِيَّةِ فِي عَسِيبِ ذَابِلِ[1]

قال جرير:

وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لها بِجِلاَجُلٍ   وَحْيُ الزَّبور تُجِدُّهُ الأَحْبَارُ[2]

فالكتبة هم أحبار اليهود، ولغة الكتابة هي اللغة الحميرية، ومادة الكتابة العسيب الذابل، وهو جريد النخل

---

(١) ابن دريد، الجمهرة، ح ١ ص ٢٥٤. وفيه: «أخبارها». والتصويب من، شيخو، الآداب النصرانية، ص ص ١٨٤، ٢٢١ أما لفظة: «بينها»، فلا بد أن تكون تحريفاً من فعل مثل: «خَطَّها»، أو «جَدَّها»، أو ما أشبههما.

وجاء في ديوان ابن مقبل، ص ٢١٧:

أَوْرَدَ حِمْيَرُ بينها أخبارها   بالحميرية في كتاب ذابل

ولم يتنبه المحقق عزة حسن إلى هذه الصورة المألوفة، وترابط الألفاظ، لا سيّما في «كتاب ذابل»، والذبول صفة للعسيب لا للكتاب.

ولا داعي للاسترسال مع الشواهد، فقد استوفينا هذا في كتاب: الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي، في موضع كتابة الشعر الجاهلي، ولكن من مؤيدات ذلك قول الحسين بن مطير:

وبالبُرْقِ أَطلالٌ كَأَنَّ رُسُومَهَا   قَرَاطِيسُ خَطَّ الحَبْرَ فِيهِنَّ سَاطِرُهْ

ياقوت معجم البلدان، «البرقاء».

وقال البعيث:

فَصَارَةَ فَالقُوَيْنِ لأياً عَرَفْتُهُ   كما عَرَّضَ الحَبْرُ الكِتَابَ المُرَقَّمَا

البكري، معجم ما استعجم، «صارة».

(٢) ديوان جرير، ص ٢٠١.

الحميرية، ومادة الكتابة العسيب الذابل، وهو جريد النخل الذي نُزِع عنه الخوص، ومضمون الكتابة هو الزبر، أي: الصحف المنسوبة إلى داؤد (فقد زيف اليهود كل تراث الأنبياء).

يقول ابن منظور:

«وقد غلب الزبور على صحف داود، وكل كتاب زبور»[1]

ويقول أيضاً:

«الزبور: ما أنزل على داود من بعد الذكر، بعد التوراة»[2]

ومن ثم فإن المفهوم من قول امرىء القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبٍ يَمَانِي[3]

إنما يقصد به ما يقصده الشاعر السابق، أي: «**بينها أحبارها بالحميرية في عسيب ذابل**»، أي: إن هذه الزبور هي تلك الصحف المنسوبة إلى داؤد.

غير أن ما ينبغي الالتفات نحوه هو الفرق بين القولين فيما يخص اليمن، فهناك: «**أحبارها**»، أي: علماء اليهود الذين أمضوا سنين في التبحر في الكهانة، فهم شمط

---

(١) اللسان، «زبر».

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ديوان امرىء القيس، ص ٨٥.

متقدمون في السن؛ وهنا: «**وليد يمان**»، وهذا يعني أن تدوين الكتب المقدسة اليهودية وكتابتها، لم يكونا حكراً على طبقة معينة من الناس، بل كان يمارسه حتى صغار السن منهم، وإن ظل هذا كله في نطاق الممارسة الدينية؛ أي إنه لم يكن بمقدور كل وليد أن يقوم بهذا الشأن، وإنما هم فئة منتخبة مختارة منهم، ولذلك عرَّفه بالإضافة.

القراءة

لا يسع المرء، وهو يحاول التدقيق في الإشارات المحدودة عن الكتابة في العصر الجاهلي عند اليهود، إلا أن يلاحظ شدة البون بين استعمال الكتابة والقدرة على القراءة. فكما تبينا، هناك قدر ضئيل جداً من ممارسة الكتابة عند يهود غرب الجزيرة العربية وشمالها، واحتكار الأحبار عملية التدوين، وشدة محافظتهم، بحيث لا يسمحون باستبدال الزبر القديمة بزبر حديثة النسخ، أما في جنوب الجزيرة العربية، فكان الوضع التعليمي في مدارس اليهود أفضل من غيره بينهم، وإن كان على نطاق ضيق متعصب أيضاً.

ويبدو أن أحبار اليهود، الذين قصروا الاطلاع على مدوناتهم الدينية عليهم وحدهم، وهم في ذلك قلة معدودة أيضاً، لم يمكِّنوا سواهم من معرفتها وتعلمها، فكانت وقفا عليهم وحدهم، يوجهون عامتهم إليها، وينقلون لهم ما يشاؤون منها؛ يقول أبو طالب:

فَإِنِّي وَالسَّوَابِحُ كُلَّ يَوْمٍ   وَمَا تَتْلُو السَّفَاسِرَةُ الشُّهُودُ

والسفاسرة: هم أصحاب الأسفار[1]. قال تعالى في اليهود:

﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٦].

ويقول عبد الله الزبعري:

أَلهَى قُصَيّاً عَنِ الْمَجْدِ الأساطِيرُ وَرَشْوَةٌ مِثْلَ مَا تُرْشَى السَّفَاسِيرُ
وَأَكْلُهَا اللَّحْمَ بَحْتاً لاَ خَلِيطَ لَهُ وَقَوْلُهَا رَحَلَتْ عِيرٌ أَتَتْ عِيرُ[2]

ويقول لبيد ذاكراً أحد أولئك القلة القليلة ممن يعرف القراءة:

قَوْمٍ لاَ يَدْخُلُ الْمُدَارِسُ فِي الرَّحْـ ـمَةِ إِلاَّ بَـرَاءَةً وَاعْـتِـذَارَا[3]

والمدارس: هو الذي قرأ الكتب ودرسها.

وواضح من لفظة المدارس أنها جاءت من اللفظة العبرية: «**المدراش**»، وهو: «**التعليم الشفهي للتوراة**»[4].

وقد انغلق اليهود على أنفسهم، وحصروا التعليم في خاصتهم، وحافظوا على توارث علومهم الدينية، فكانت كتبهم بالية كبلى الأطلال. يقول عمارة بن عقيل:

---

(١) الزبيدي، التاج، «سفر».
(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ص ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٣) اللسان، «درس». وهو ليس موجوداً في شعره.
(٤) ديب، التوراة تاريخها وغاياتها، ص ٩٤.

حَـيِّ الـدِّيَـارَ كَـأَنَّـهَـا أَسْـطَـارُ بِالوَحْيِ تَدْرُسُ صُحْفَهَا الأَحْبَارُ[1]

ويكشف هذا المفهوم جيداً عن مستوى التعليم عند اليهود، فالأحبار، أي خاصة الخاصة منهم، هم الذين يقرأون، أما غيرهم، فلا تعليم لديهم، حتى إن المرء يمكنه أن يذهب أبعد ذلك، فيرى أن هذه الخاصة نفسها، كانت طبقية فوقية، تسعى إلى تجهيل من هم في حلقتها.

نجد هذا واضحاً عندما دخل الرسول ﷺ مدارس اليهود، يدعوهم إلى الإسلام، فوجد **نُعيم بن عمرو، والحارث بن زيد**[2]. . . فليس في المدارس في المدينة، المركز التجاري العام، سوى اثنين من كبار الأحبار.

ويفسر لنا هذا التجهيل الخاص والعام، ما ورد في القرآن الكريم عن عَوَام اليهود am- ha'aretz :

﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني إن هم إلا يظنون﴾ [البقرة: ٧٨].

فالأمية عامة فيهم، فاشية فيما بينهم، يتلقون ما ينقله لهم علماؤهم، ولا يدرون حقيقته، ولا يعلمون فحواه.

ويؤكد ابن خلدون هذا الوضع حين يقول عن يهود

---

(١) ديوان عمارة، ص ٤٥. في الأصل: «الأخبار». وهو ما نبهني إليه الزميل د/ محمد خير البقاعي. وانظر التعليق السابق على بيت ابن مقبل. وانظر قول جرير السابق.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج ٣، ص ٢١٠.

الحجاز:

«كانوا بادية بالحجاز، غفلاً عن الصنائع والعلوم، حتى عن شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم»[1].

كما يقول عن يهود اليمن:

«أهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية»[2].

ولقد أدى هذا الوضع إلى استغلال أحبار اليهود لليهود، وتضليلهم حول حقائق التوراة ومروياتها، فنشروا بينهم الأكاذيب والخرافات والأضاليل، يقول تعالى عنهم:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أما عن تعليم المرأة، فالواضح أنهم حدُّوا منه جداً، بحيث لا نسمع عنها ذكراً، بالمقارنة بعدد الرجال القرأة والكتاب، فمن أولئك النسوة اللاتي استطعن تلقي تعليم في الديانة اليهودية.

كاظمة بنت مرة، وكانت متهودة قد قرأت الكتب[3].

---

(١) المقدمة، ص ٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٩.

وانظر Reissner, the Ummi Prophet.., p. 280.

(٣) اللسان، «نظر».

الخاتـــمة

تعايش العرب مع اليهود ردحاً من الزمن، فهم جاؤوا إلى الجزيرة العربية، في زمن ابتدأ الضعف والانحلال ينخران في جسد دولة العماليق؛ وتتضارب الأقوال في تاريخ مجيئهم، بيد أن مجيئهم في فترة التدهور والانحلال أمر لا يمكن نكرانه. ولكنهم رغم ذلك عاشوا متقوقعين على أنفسهم، انعزاليين، رغم أن الأرض كانت تعاني من فراغ سكاني، حتى تهيأت لهم الموجة التالية من موجات انتشار العرب، فأحاطت بهم قبائل من اليمن وقبائل من معد، وابتدأ تضييق الخناق عليهم، فكان أن تحررت أجزاء من يثرب، وكل منطقة وادي القرى، ما عدا فدك، وخيبر، وتيماء، حتى جاء الإسلام، فأزال وجودهم من الحجاز كلية. أما في مناطق الكثافة السكانية في اليمن، فعلى الرغم من أنهم استطاعوا التوصل إلى سدة الحكم، فإنهم سرعان ما ذابوا في المجتمع، لا سيما أولئك المتهودين من العرب، وبقي من هاجر إلى اليمن من عنصر غير عربي على يهوديته، دون تأثير في الكيان اليمني. وهكذا كان الوضع في مناطق وجودهم في عمان، والبحرين، والحيرة.

لقد كشف لنا هذا الوجود عن ملاحظات قيمة بدت

غير دقيقة في كتاباتنا حتى الآن، وذلك فيما يتعلق بممارسة اللعبة الخفية تجاه الأقوام الآخرين، «الغرباء ـ الغوييم»، وهي لعبة نفذها اليهود في استمرار إشعال وقود الحرب بين الأوس والخزرج.

أما الجوانب المهمة في الدراسة، سوى هذه، فهي ما لم يستحضره أحد حتى الآن ممن كتب عن يهود الجزيرة العربية؛ فهناك من الدارسين اليهود، وعلى سبيل المثال إسرائيل ولفنسون، وأنصارهم، مثل مارغليوث، والكتاب العرب عامة ـ من كتب عن عبادة اليهود وتجارتهم، ولكنهم درسوا المادة الأدبية على أنها أطر فكرية للمادة التاريخية، بل إن الذين درسوا الشعر اليهودي في الحجاز، درسوه على أنه مادة وصفية إنشائية لعناصر الشعر فقط، بينما تجد في هذا الكتاب التوقف ملياً عند أشعار تكشف لنا طريقة اليهود في الصلاة مثلاً، وفي بناء المعابد، والاتجاه الوثني في الديانة اليهودية... إلخ.

وتدرك بنفسك الفكر اليهودي في استخدام الدين لتحقيق مآرب دنيوية، فتجارة الخمر، ليست عبارة عن إشارة يُذكر فيها اليهودي، بل إن وراءها طقوساً دينية. وتظل تتنقل في الكتاب من الشعوذة والسحر، إلى الخرافة والأسطورة. ثم تنتهي إلى تعرف حقيقة اليهود في جزيرة العرب.

وتصل أخيراً إلى إدراك شخصية اليهودي: المتدين والأمي، وتعلم مدى الخطورة التي كان يشكلها هذا الفريق

من البشر، لولا أن جاء الإسلام، فحطم وجودهم في الجزيرة العربية خاصة، وفضح وجودهم في الكون أجمع.

وبهذا تنتهي إلى موافقة أكيدة على معطيات العلم في بيان طبيعة علاقة اليهود بمجتمعَهم، وثوابت القرآن الكريم في فض اللاشعور عندهم تجاه الله والإنسان، وفي تأكيدات هذه الدراسة على وسائل معيشتهم وأنماط سلوكهم بين أقوام احتضنوهم، وعدوهم جزءاً منهم، وأفسحوا لهم زمناً ديارهم، بل قبلوهم مشردين، طالبي نجدة وإنقاذ.

المصـادر

الكتب:

- **الأصفهاني**، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ط ٤، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).
- **الأصمعي**، أبو سعيد عبد الملك بن قريب، الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ط ٥، ١٩٧٩م).
- **الأشنانداني**، أبو عثمان سعيد بن هارون، معاني الشعر، تحقيق عز الدين التنوخي (دمشق: مديرية إحياء التراث، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).
- **الألوسي**، محمود شكري، بلوغ الأرب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، د ـ ت).
- **البلاذري**، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م).
- **البطليوسي**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد، الفروق بين الحروف الخمسة، تحقيق عبد الله الناصر (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- **البكري**، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط أولى، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م).

- **الجاحظ**، أبو عمرو عثمان بن بحر، الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٢م).
- **البيتي العلوي**، السيد جعفر بن السيد محمد، مواسم الأدب (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ).
- **التوراة**، (القاهرة: دار حلمي، ١٩٧٠م).
- **الجواليقي**، أبو منصور موهوب بن أحمد، المعرب، تحقيق ف ـ عبد الرحيم (دمشق: دار القلم، ط أولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- **ابن الجوزية**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم، زاد المعاد (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ٢، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م).
- **ابن حبيب**، أبو جعفر محمد، المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر (بيروت: المكتب التجاري، د ـ ت).
- **ابن دريد**، أبو بكر محمد بن الحسن، الجمهرة (حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٥هـ).
- **الزبيدي**، محمد مرتضى، تاج العروس (القاهرة: المطبعة الخيرية، ط أولى، ١٣٠٦هـ).
- **السمهودي**، نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة، ط أولى، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).
- **ابن شرية**، عبيد، أخبار عبيد بن شرية (الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٧م).
- **ابن شموئيل**، إسرائيل، الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية، تحقيق عبد الوهاب طويلة، (دمشق: دار القلم، ط أولى،

١٤١٠هـ/ ١٩٨٩).

- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٩م).
- **ابن عاشور**، الطاهر، تفسير التحرير (تونس: مطبعة الدار التونسية، ١٩٨٤م).
- **أبو عبيدة**، معمر بن المثنى، النقائض، تحقيق إ ـ إ ـ بيفان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٥م).
- **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعاني الكبير (حيدرآباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م).
- **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).
- **ابن الكلبي**، أبو المنذر هشام، الأصنام، تحقيق أحمد زكي (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٩٢٤م).
- **المعري**، أبو العلاء، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء، (القاهرة: دار المعارف، ط ٤، ١٩٥٠م).
- الفصول والغايات، تحقيق محمود حسن زناتي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م).
- **ابن منبه**، وهب، التيجان في ملوك حمير (الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٧م).
- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د ـ ت).
- **الميداني**، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

- **النهشلي**، عبد الكريم، الممتع في صنعة الشعر، تحقيق محمد زغلول عبد السلام (القاهرة: دار غريب، ١٩٧٧م).
- **الهمداني**، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م).
- **الهمذاني**، أبو الفضل أحمد بن الحسين، شرح مقامات الهمذاني، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الكتب العلمية، د ـ ت).
- **ياقوت**، شهاب الدين بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

المجموعات الشعرية

- **ابن الأنباري**، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار، شرح المفضليات تحقيق كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠م).
- **التبريزي**، أبو زكريا يحيى بن علي، شرح المفضليات، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- **السكري**، أبو سعيد الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة المدني، د - ت).
- **ابن سلام**، محمد الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢م).

الدواوين والأشعار

- **ابن الأبرص**، عبيد، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق جيمز شارلز لايل (لندن: لوزاك، ١٩١٣م).
- **الأخطل**، غياث بن غوث، شعر الأخطل، تحقيق فخر الدين قباوة (حلب: دار الأصمعي، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
- **الأعشى**، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين (القاهرة: المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م).
- **امرؤ القيس**، ابن حجر، ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨م).
- **ابن ثابت**، حسان، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات (لندن: مطبعة ستيفن أوستن وأولاده، ١٩٧١م).
- **جرير**، بن عطية، ديوان جرير، شرح محمد إسماعيل الصاوي (القاهرة: مطبعة الصاوي، ط أولى، ١٣٥٣هـ).
- **ابن حجر**، أوس، ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ط ٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).
- **ابن الخطيم**، قيس، ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد (بيروت: دار صادر، ط ٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).
- **الذبياني**، النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥م).
- **الراعي**، عبيد بن حصين، شعر الراعي النميري، تحقيق نوري

حمودي القيسي وهلال ناجي (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- **ابن رواحة**، عبد الله، ديوان عبد الله بن رواحة، تحقيق محمد حسن باجودة (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٢م).
تحقيق وليد قصاب (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- **ابن الزبعري**، عبد الله بن الزبعري، تحقيق يحيى الجبوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- **ابن زيد**، عدي، ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، ١٩٦٥م).
- **طرفة**، بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مطبعة مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).
- **الطرماح**، ابن حكيم، ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق عزة حسن (دمشق: مطبعة مديرية إحياء التراث، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).
- **ابن عقيل**، عمارة، ديوان عمارة بن عقيل، تحقيق شاكر العاشور (بغداد: وزارة الإعلام، ط أولى، ١٩٧٣م).
- **كثير**، عزة، ديوان كثير عزة، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).
- **لبيد**، بن ربيعة، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق إحسان عباس (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٦٢م).
- **ابن معديكرب**، عمرو، شعر عمرو بن معديكرب، تحقيق مطاع الطرابيشي (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٤م).
- **ابن أبي مقبل**، تميم بن أبي، ديوان ابن مقبل، تحقيق عزة حسن

(دمشق: مطبعة مديرية إحياء التراث، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).

- **أبو نواس، الحكم بن هانىء، ديوان أبي نواس، تحقيق محمود كامل حديد (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٥٦م).**
- **ابن الورد**، عروة، والسموأل، ديوان عروة والسموأل (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

المراجـع

- **الجرح**، محمد سالم، دراسات عربية سامية (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٥م).
- **جواد علي**، ـ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط أولى، ١٩٦٨م).
- **الحوفي**، أحمد، المرأة في الشعر الجاهلي (القاهرة: مطبعة المدني، ط ٢، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).
- **الخضراوي**، محمد عيد، شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج (دمشق مؤسسة علوم القرآن، ط ثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- **دروزة**، محمد عزة، تاريخ الجنس العربي (بيروت، المكتبة العصرية ١٣٧٦م).
- **راشد**، سيد فرج، القدس عربية إسلامية (الرياض: دار المريخ، ١٩٨٦م).
- **رمضان**، محمد أحمد، إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر (عمّان: دار الكرمل، ١٩٨٧م).
- **سعيد**، جميل، تطور الخمريات في الشعر العربي (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٤م).
- **سوسة**، أحمد نسيم، العرب واليهود في التاريخ (دمشق: العربي، ط ٤، ١٩٧٥م).
- **الشامي**، رشاد عبد الله، جولة في عالم الدين والتقاليد اليهودية

(القاهرة: مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧م).
- **شنودة**، زكي، اليهود (القاهرة: مكتبة النهضة، ط أولى، ١٩٧٤م).
- **أبو شهبة**، محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات (القاهرة: مكتبة السنة المحمدية، ١٤٠٨هـ).
- **شيخو**، لويس، النصرانية وآدابها (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٨م).
- **طعيمة**، صابر، التاريخ اليهودي العام (بيروت: دار الجيل، ط ٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- **ظاظا**، حسن، أبحاث في الفكر اليهودي (دمشق: دار القلم، ١٩٨٧م).
- الفكر الديني اليهودي (دمشق: دار القلم، ١٩٨٧م).
- **عبد الغني**، عبود، اليهود واليهودية والإسلام، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢م).
- **لوبون**، غوستاف، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ترجمة عادل زعيتر (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٥٠م).
- **المجدوب**، أحمد علي، المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط أولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- **محمود**، سلام شافعي، خيبر (الإسكندرية: مركز الدلتا للطباعة، ١٩٨٩م).
- **مهران**، محمد بيومي، تاريخ العرب القديم (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م).

- **نعناعة**، محمود، المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل (القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٢م).
- **ولفنسون**، إسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب (القاهرة: الاعتماد، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م).

المراجع الأجنبية

الكتب:

- Arberry, A.J. Religion in the Middle East (Cambridge: Cambridge Univ, Press, 1976).
- Margoliouthe, D.S, The Relation Between Arabs And Israelites prior to the Rise of Islam (London: Oxford Univ. Press, E.C. 1921).

الأبحاث:

- The Ummi Prophet and the Banu Israil of the Qurān, the Muslim Word, 39, (1949).

كتب للمؤلف

المنشورة:

- نظرية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي (ترجمة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
- الشعر والغناء في ضوء نظرية الرواية الشفوية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- حماد الراوية بين الوهم والحقيقة (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
- الشعر المنحول: قضايا ونصوص (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
- الرؤية العرقية عند العرب حتى نهاية العصر الأموي (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
- بحث صدر عن مركز البحوث ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، عدد ٢٢، بعنوان: تاريخ تغلب القديم .The Ancient History of Taghlib
- اليهود دراسة تاريخية (١٤١٨هـ/١٩٩٨م) «كتابنا هذا».
- خطر التوراة على الكُتّاب العرب المحدثين (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
- خلف الأحمر: الشاعر العالم.

تحت الإصدار:

- التراث الشفوي للشعر العربي القديم (ترجمة).
- الدم المقدس عند العرب.
- الأسس الفنية لدراسة الشعر الجاهلي.
- قضايا فكرية في الشعر الجاهلي.
- مسائل خلافية في الشعر الجاهلي.
- التاريخ السياسي الشفهي للجزيرة العربية.
- تحليل القصائد.
- الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي.
- الذئب في العلم والتاريخ.
- الذئب في الخرافات والأساطير.
- الذئب في الشعر العربي القديم.
- رسالة في الذئب.
- الذئب العربي.
- رسالة دكتوراه غير منشورة من جامعة أدنبره ـ سكوتلنده ـ بريطانيا (١٤٨٤هـ/ ١٩٨٤م) بعنوان: شعر تغلب

The Poetry of Taghlib.

- كتابات عربية في تاريخ الشعر الجاهلي.
- توثيق الشعر الجاهلي.
- العلاقات الأدبية بين العرب واليهود.



قــراءة

قبل الإسلام استقبلت الجزيرة العربية اليهود، فسعوا إلىَ بث الفرقة والشحناء والاستنزاف.

وبعد الإسلام لجأوا إلىَ المهادنة: أفعالهم هي أفعالهم أينما حلُوا؛ يحملون على كواهلهم الماضي، محافظين أبداً على خط عام هو:

لنا عادات وتقاليد وسلوك.

وهذا الكتاب يكشف لك، ولأول مرة، كل التفاصيل.